محمد أبليل

أصفاد من مرض

محمد أبليل

رواية

أصفاد من مرض

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى كل من يشاركني إسم العائلة أصلا وفرعا ، وإلى كل من تربطه علاقة بعائلتي نسبا وصهرا ، كما أهديه إلى والدتي ، التي لولا دعواتها لي لما وصل هذا العمل إلى أيادي حضراتك القارئ(ة)...

كما أرفع قبعتي وأنحني أمام كل أستاذ درسني ، وكل معلم علمني ، وكل محفظ حفظني ، وكل من حرص على تعليمي ، وأخص بالذكر شيخي الفاضل ، ومعلمي الوقور ، "سيدي مصطفى بوفيم"..

فأقول وكل جوارحي تنطق ، أني قد جهدت جهدي ، وبذلت وسعي ، وغصت في قاموسي ومخزوني ، فلم أجد كلمات تتناسب مع سيادتكم ، ولكن يمكن القول ، أنكم كنتم متميزين

بعطائكم ، متفردين بسخائكم ، قائمين بدوركم ، في التربية والتعليم.

فكلمة شكر تخرج من فؤادي ممزوجة بتعابير حب صادقة ، بتعابير امتنان خالصة ، ممزوجة بنفحات النسيم وأريج الأزاهير، ممزوجة بخيوط شمس يوم جميل ، وسهام بدر منير، بتعابير لا توفي جزاء مشوار من العمر طويل ، من العطاء الدائم الدؤوب ، فلكم مني كل التحايا والتقديرات ، على المجهودات المبذولة ، والتضحيات الجسام ، وجزاكم الله عني خيرا وتوفيقا وسدادا ، ووفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه ، إنه على كل شيء قدير.

وبحروف ثقيلة ، والحاملة من التعابير ما حاملة ، أقول فيها أني قد أهديت هذا العمل إلى من اشتاقت لرؤيته العيون، واشتاقت لعناقه الأحضان ، واشتاقت لصوته الآذان ، إلى من صورته لا تفارق الأذهان ، أهديت هذا العمل إلى من تمنيته أن يعود روحا أو طيفا أو رؤية أو حتى حلما ... إلى روح والدي الحنون ، تغمده الله بواسع رحماته ، وأنار عليه ظلمات قبره ، وجعله مع المنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين... وجمعني الله معه في جناته ، آمين...

ملحوظة

إلى قرائي الأعزاء..

أحيطكم علما ، أن أحداث هذه الرواية ، ما هي إلا فترة معينة، عاشها المؤلف (أنا) بأيامها ولياليها ، وبجوعها وعطشها... ولكن ليست كل الأحداث واقعية ، وأؤكد على أن كل الأحداث ليست واقعية ، فبعضها ، إن لم يكن معظمها ، ليس إلا ضربا من الابداع ، ونسجا من الخيال ، معينا ومستعينا بما ءاتاني به الله من فسيلة الإبداع ، فيقال أن "مصائب قوم عند قوم فوائد"، وأقول أنا: "مصائب زمن في زمن فوائد"، فنسجت من تلك التجربة المريرة ، هذا القالب الماثل بين أياديكم ، والغير منزه من الأخطاء الإملائية الفادحة ، وركاكة التعبير الفاضحة ، فلتتجاوزوا عن ذلك ، ولتقرؤوا ما بين السطور، وأرجوا أن تحظوا بقراءة ماتعة ممتعة...

" أن تؤلف كتابا ، أن يقتنيه غريبا ، فى مدينة غريبة،

أن يقرأه ليلا ، أن يختلج قلبه لسطر يشبه حياته..

ذاك هو المراد من الكتابة..."

لقائلها...

اليوم الأول

"غرز في يدي إبرة

مربوطة بأنبوب

موصول بكيس

معلق فوق عمود

واقف على عجلات

مركونة بجانب سريري"

إنه حال أمي..

دائما ما تأتي كل صباح لتوقظني قبل الوقت المتفق عليه، غير أن هذا اليوم ، وأنا ما زلت في وطأة النعاس ، أحسست بألم في جوفي ، يعتصر بطني اعتصارا ، تأنيت ألما...

مرة أخرى وضعت رأسي فوق وسادتي ، لعل أعيني تطيعني وتستجيب لقيلولة أو لكيثورة ، إلا أن أمي باتت لي بالمرصاد...

_"محمد ، إنها السابعة والنصف ، قد حان الوقت"..

هذا قول أمي لا تنفك تذكرني بالوقت وأوضاع عقارب الساعة...

نسيت أن أذكركم ، نحن في صيف سنة تسعة وألفين (2009) ، وكما هو معهود في بلدتنا ، الصيف نقضيه في تلقي الدروس القرآنية ، على يد فقيه جليل ، وإمام وقور، وأب حنون ، المكرس حياته لغيره ، والساهر على تربية

تلامذته ، والذين حصل لهم شرف وفخر لا فخر يعادله ، فإن كان لكل ظرف بطل ، فإمامي وسيدي بطل كل الظروف ...

كما سمعتم أمي قالت: "الوقت قد حان" ، ولا طاقة لي لتلقي الضرب عقوبة للتأخير، اِتجهت إلى المطبخ ، وحييت أمي تحية الصباح ...

_"أمي في بطني ألم لا يطاق !!!"

قلتها وحالي لا يعلم به إلا الله ، لكن أمي لم تعر كلامي أي اهتمام ، حاولت إقناعها لكنها مصرة على موقفها ؛ معتبرة كلامي حجة للتغيب عن المدرسة القرآنية... سلمت أمري لله ، وأذعنت لأمر الواقع .

خرجت من المنزل و أنا أجر أذيال الخيبة ، وأثقال الألم ، بمجرد أن فتحت الباب إذا بنسيم يستقبلني ، أحسست به يعانقني كأنه أحس بألمي ، والشمس تحدق بي متحدية ، وقد احتلت قلب السماء ، وأنا أنظر إليها وأقول:

_" كفي عنا لهيبك ، وصدي عنا ألسنة نارك ، فلا طاقة لي للصمود ، والنهار مازال في طليعته ، فيكفينا ما فينا ..."

ألقيت نظرة على ساعة يدي السوداء ، وإذا بي أجدني قد تخلفت عن الموعد بخمسة دقائق ، فأخذت أجري رغم الألم ، وأدعوا الله أن لا أصادف الفقيه في المجلس ، وأنا أهرول والطيور تسخر مني بزقزقتها المستفزة التي لا تتناسب وحالتي.

وقفت أمام الباب ، وألقيت بمسامعي على الجدران، لأتأكد من حالة الأوضاع في الداخل ، أهادئة ، أم عاصفية كليلة تعج بالرعد و البرق ، ألطف الله بي ولم أصادف الفقيه.

أخذت لوحتي واتجهت لفناء المسجد ، وأخذت مجلسي بين زملائي ، أذاكر ما هو مكتوب في لوحتي بهمة مخافة من سوء المصير، كنت قد توسطت المجلس فلا سارية أستند عليها ، ولا حائط أستظل به...

خرج الفقيه من بيته ، ولم ينبهنا بخروجه إلا صفير أصدره بابه ، كان الفقيه قبل دخولي قد ميز تأخيري ، إلا أنه لم يخبرني بشيء ، وكما قلت توسطت المجلس والفقيه يمشي بين الصفوف ، استغربت الموقف فما من عادته أن يتغافل لا عن المتمردين الغائبين ، ولا عن المقصرين المتأخرين .

في تلك اللحظة بين الاستغراب والذهول ، والألم المعلول ، أحسست باصطدام مجهول... إلتفت فإذا بي أجد الفقيه ورائي ، وقد طبعت أصابع رجله على ظهري ، نظرت إلى عينيه ببراءة وضعف ، من خلال نظراته أحسست بأنه قد أحس بما لم تحس به والدتي.

بعد مرور ما يقارب أربع ساعات ، اجتمعنا حول الفقيه، يتلوا و نردد... يتلوا ونردد... قصد استيعاب قواعد التجويد ، انتهينا و ختمنا بصدق الله العظيم ، وبدأ الشيخ يبادلنا أطراف الحديث ، لما يقارب نصف ساعة أو يزيد ، وأنا أعتصر وأعتصر ألما ، كلما مرت دقيقة إلا والألم يزداد شدة بعد شدة ، حتى الضحك في تلك اللحظة عذاب لي ، حان وقت الخروج..

وأنا عائد إلى البيت أمشي وظهري مقوس ، ورأسي منحني ، دخلت مباشرة سرت إلى مرقدي ، لأنال قسطا من الراحة ، لعل الألم يخمد ناره ، لكن وقع العكس ، زادت حدة لهيبه ، وأثار في أحشائي فوضى عارمة ، أسكرات هي ام ماذا؟؟

ناديت والدي بصوت لو كان أصم بجانبي لسمعه ، جاؤوا إلي مذعورين ...

"أمي أحشائي تتمزق وقواي تخور"...

اصطحبوني ، ولكوني أبلغ من العمر ثمان سنوات ، إلى عيادة للأطفال ، كشف الطبيب عني ، وأحالني فورا على المستعجلات. هناك في قسم المستعجلات ، قام الطبيب بإعطائي حقنة مسكنة ، وأنا أستريح جراء الحقنة ، دار حديث بين الطبيب وأبي ، يتحدثون وأنا أسترق السمع ، إلى أن سمعت جملة تمنيت حينها لو أني حقنت بمخدر عوض المسكن ، جملة خرجت من فم الطبيب سهما إخترق صدري اختراقا ، قالها بصوت خافت:

_"عشر دقائق تفصله عن الموت ، لو تأخرتم قليلا لأَوْدَعْتُمُوهُ ووَدَّعْتُمُوه"...

جملة غردت داخلي ناقوسا للإنتباه والخطر، فيما بعد علمت من الطبيب أنني سأقيم في المستشفى أياما ، ولن يكون برفقتي إلا والدتي.

تلك أول مرة أفارق فيها إخوتي ، ودعتهم وأبي بنظرات الخوف والخشية ، أنظر إليهم يغادرون الممر، أخشى أن تكون تلك اللحظة خاتمة لما بيننا ، هاهم قد انعطفوا

وانعرجوا، ولم يبقى معي إلا والدتي.

قادنا ممرض إلى غرفة ، رائحتها تفقدك الشهية ، وتزيدك على المرض غمة ما بعدها غمة ، غرفة بلغت في اهترائها القمة ، وفي عفنها الذروة ، أسرتها تطير لك النعاس، وُضعت على سرير حاشا أن يسمى سريرا، يُصدر أصواتا وكأنه ينفخ في ناي...

دخل الطبيب ومعه الممرضة ، أخذ بيدي يقلبها و يضغط عليها ، لم أفقه شيئا من فعله ذاك ، ينظر إلي ووجهه تعتريه بسمة ، مصحوبة بعبارات تشجعني وتطمئنني ، ويدي لازالت تحت رحمة يديه ، استنتجت من فعله ذاك ، أنه يبحث عن العروق ...

غرز في يدي إبرة ، مربوطة بأنبوب ، موصول بكيس ، معلق فوق عمود ، واقف على عجلات ، مركونة بجانب سريري ، خرج الطبيب ومعه الممرضة.

أشحت بعيني إلى نافذة تبعد عني خطوات قليلة ، نظرت إلى السماء وإذا بسواد قد احتلها ، ونظرت إلى والدتي المسكينة ، فإذا بي أجدها تغط في النوم بعد عناء يوم حاربت فيه ببسالة وضراوة...

وأنا أتأمل في حالتي متأسفا ، قطع شرودي ذاك صرير الباب ، دخلَت علينا ممرضة بوجه عبوس قمطريرا ، بمجرد أن تشابكت أعيننا و تلاحمت ، إنقلب العبوس بشوشا ، والقمطرير مبتسما؛ ولكن ما بعد العبوس إلا بسمة مصطنعة..

_"كيف حال بطلنا ؟"

قالتها محيية إياي ، وبكل نفور و فقدان للأمل أجبتها..

_" بطلكم في حالة يرثى لها ولا يحسد عنها "

المهم بلا تفاصيل ... إتجهَت إلى الكيس الذي أخبرتكم عنه ، تفقدت سعة محتواه ، وعدلت من سرعة قطراته. أنهت مهمتها وهي تغادر الغرفة ، لوحت لي بيدها مودعة. أطفأت الأنوار، وأغلقت خلفها الأبواب ، وأسدل معها الليل ستاره ، وجمع النور رحاله متما ترحاله ، مع مغادرة الممرضة للممر الذي أخشى وحشته .

بقيت أسيرا للظلام ، أتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، لم أجد للنوم سبيل ، أغمضت جفوني لأستمتع بهدوء الليل ، إلا أن صوت قطرات صنبور حالت بيني وبين المراد ، بالإضافة

إلى صوت سعال متكرر، شق الظلام وشق الجدران ، إلى أن وقع في طبلتي أذناي ، المهم رغم الظروف التي ينعدم فيها شيء إسمه هدوء ، أسدلت عيناي جفناها ، وسلمت نفسي لغيبوبة ، لا أعلم هل هناك حياة بعدها؟ أم من هنا إلى مولاها؟

اليوم الثاني

"تذكرت مصدر مرضي وآلامي وما أعاني ، في تلك الليلة تسللت حذقا إلى المطبخ ، باحثا عن شيء يؤكل دون أن يطبخ ، فلم أجد إلا..."

استيقظت على ضوء الشمس ، ألقيت نظرة على ساعتي ، لأقرأ في أرقامها العاشرة وسبعة وثلاثون دقيقة ، شعرت بتحسن بعد مشوار من النوم طويل ، تحسست أمي فلم أجدها ، شعرت بخوف موحش ، وأنا وحيد في مكان يعج بالمرضى و الموتى و المصابين ، بعد تذكر الموتى أصبحت مذعورا مخلوعا مهلوعا .

يا ويلي !! ما كل هذه المصائب التي تصب علي صبا؟

-"إقرؤوا بصمت ، سمعت همسا دعوني أتحسس مصدره"..

رفعت رأسي دون جسدي ، أسير في الغرفة بعينين شبه مغلقتين ، أظن أنني لمحت جثتين على سريرين مركونين في ركنين من الطرف الآخر من غرفتي .

عدت برأسي إلى وضعيته السابقة ، استلقيت حائرا ، لا أعرف أأهذي أم أهلوس؟؟

-"دعوني أتأكد مرة أخرى"..

أحسِّن وضعية رأسي ، وألقي بنظرات بين رموش عيناي ، لأبصر إمرأة تلوح لي بيمينها ، وجدت أنني أتشارك الغرفة مع مريضتين ؛ امرأة أربعينية بوجه يميل إلى السمرة، وعينين يحيط بهما سواد ، تنزل المستشفى بسبب تواجد علة في قلبها على ما سمعت ، والأخرى لم أقرأ ملامحها ، ولم أعرف مرضها ، نائمة أظنها.

_"أريد أمي ، إئتوني بأمي"..

أصيح ولا طاقة لي للصياح ، ولكن ما ظنكم بطفل استيقظ من نومه ولم يجد أمه بجانبه ، والمرأة مسكينة من مكانها تبعث لي بباقات من كلمات لتخفف و تهدئ من هلعي. أقنعتني بكلامها الذي يظهر أنني في حضرة إمرأة ذات روح طيبة ، أخبرتني أنها بادلت و أمي أطراف الحديث ، كما أخبرتها أن تنتبه لي إلى أن تعود ، إكتفيت بالإشارة تجاوبا معها ؛ لأن حالتي كما تعلمون لا تسمح بأكثر من ذلك.

ولتجنب النظر إلى السقف المنقوش بتشققات ثلاثية الأبعاد ، أرسلت نظري إلى النافذة ، متأملا كآبة السماء المختبئة خلف الغيوم ، كنت سأظنها ستمطر؛ لولا الحرارة التي تحتل غرفتي استعمارا. وراء النافذة سور لا يفصل بينهما سوى طريق لا يصلح إلا للراجلين ، ولا يتسع إلا لزوجين من الأرجل.

فوق السور يقف هناك طائران ، يستعرضان ألحانهما ورقصاتهما ، هنا تذكرت يوما كنت أقف فيه على أرجلي ، لا يجرؤ أي طائر على الظهور لا من أمامي ولا من خلفي ، وأنا اليوم مريض طريح الفراش ، خرج الفراخ من أعشاشهم.. يرقصون ويتناغمون ، يسخرون ويستهزؤون ، ولكن تبقى الطيور طيورا ، والنسور نسورا...

سمعت صرير الباب ، وأنا أنتظر، بل أتلهف لرؤية أمي بجانبي ، فإذا بممرضة تدخل بوجهها الطفولي ، وتخترق الباب بطولها الذي لا يتعدى متر و قليل ، حاملة بيمينها كيسا كهذا المعلق فوق رأسي ؛ شفاف محتواه سائل شديد الصفاء، وأنا أتمعن في الممرضة و ملامحها ؛ لأعرضها عليكم هنا ، فإذا بي ألمح والدتي مقبلة خلفها

خطوة بخطوة ، إلى أن وقفت الممرضة عند مؤخرة سريري، تتفحص ملفا يصف حالتي ، أما أمي فلم تقف إلا عند رأسي.

أراقب الممرضة تقوم بما تقوم به بكل خمول وكسل ، طوت الملف كما يطوى الكتاب ، رمقتني بنظرة يقرأ فيها الناظر الإهمال و اللامبالاة ، أبدلَت موضع الكيسين ، وضعت المملوء مكان الفارغ ، وضبطت سرعة قطراته ، واتجهَت إلى صاحبتنا النائمة .

هنا الْتَفَتُّ إلى أمي ووجهت إليها أصابع الاتهام ، لتركي وحيدا دون إشعار مسبق ... مسكينة أصابها القنوط ، كما أصابني الجوع ، ومعدتي خاوية على عروشها ، لم أتناول شيئا منذ الليلة قبل البارحة.

-"تمهلوا وانتظروا ؛ تذكرت"!!

تذكرت مصدر مرضي وآلامي وما أعاني ، في تلك الليلة تسللت حذقا إلى المطبخ ، باحثا عن شيء يؤكل دون أن يطبخ ، فلم أجد إلا السمك المعلب ، فالتهمته التهاما ، وافترسته افتراسا. لم أخبر أحدا بذلك خوفا من العقاب و العتاب...

أدركت أن الألم مازال مقيما في أحشائي ، بعد أن استويت قاعدا ، تناولت فطوري ، موزة لا تطلب مجهودا للمضغ ، وكأس حليب سهل الاحتساء ، أخذت مني والدتي الكأس بعد أن أنهيت محتواه ، وساعدتني في الرجوع إلى الحفرة التي أحدثتها على السرير بثقل جسدي الهزيل .

أنظر إلى السقف المشؤوم و أستمع إلى أمي وشريكتاي يتحدثن وكأنهن صديقات منذ زمن ، وعيناي في حالة التردد بين وضعين ، أحدهما تفعيل والآخر تعطيل ، إلى أن سكنتا على هذا الأخير، لا أعرف هل السبب هو الدواء ، أم كلام النساء ، الذي أغلبه كذبا لا محالة؟

إستيقظت على ضجيج لأجد في الغرفة حشود ، إنه وقت الزيارة ، وجدت أبي وإخوتي يجلسون على أطراف سريري، يتحدثون إلي ولا يزيد كلامي عن نعم و لا . ناولني أبي شربة كوجبة غذاء ، بأمر من الطبيب ، لم أنهيها إلا بشق الأنفس ، مدة الزيارة أقل من ساعة ، قضيت معظمها بنعم و لا، ومزاح إخوتي الذين لم يدركوا قسوة حالي ، وهم يودعونني سألت والدي:

_"متى خروجي؟؟"..

_"في القريب العاجل.."

قالها وهو يطبطب على رأسي ...

نفس المشهد ، وكأن الزمان يعيد نفسه ، مرة أخرى أشاهد أبي و إخوتي يولون لي ظهورهم وهم يغادرون ، كم تمنيت حينها أن أتوسطهم ونغادر الممر سويا ، ولكن هيهات هيهات .

مسجون بين أربع جدران ، تحت سقف متلهف لعناقي ، مربوط بأنبوب يشل حركتي ، نفس الأحداث ونفس السيناريوهات ، لا حديث يذكر ، ولا أحاديث تحكى ، ولا أحداث تروى ، وكأن الزمان قد توقف من حولي .

قضيت ما تبقى من يومي على سريري الذي يشبه كرسي إعدام ، حتى دمائي أظنهم قد توقفوا بعد شعورهم بالملل ، فلا دورة دموية في جسد شبه ميت ، جسد هزيل مكون من جلد وروح ، مع بعض العظام على ما أظن ، جسد لا يستقبل طعام طاعم ، زاده ماء وما هو سائل ، هكذا أقضي أيامي ، أتأمل وأتأسف وأتحسر على حالي !!

تبا لهذه الدنيا إن أضحكت قليلا أبكت كثيرا ، وإن

أفرحت أياما أحزنت أعواما. بهذه الأفكار أقضي أوقاتي ، وتمر الأيام وأنا طريح الفراش ، ثلاثة أشياء تنعش روحي في هذا المكان إن لم تكن أربعة ؛ نسيم ينبعث من النافذة ليذكرني بالحياة في الخارج ، والثاني حديث ودعاء والدتي المقيمة معي عظم الله مقامها ، "قولوا آمين" ، والثالث لقاء الممرضة ذات الوجه العبوس المبتسم ، صاحبة الروح المرحة الطيبة ، والرابع قالوا عنه سلطان لا يرفض له أمر ، هو النوم الذي يغيبني عن آلامي ، والذي إذا تعبت يحتضنني، وبه تترفع نفسي عن الأهوال والمآسي .

هنا نطقت نشطا:

_"ياليتني طلبتها كبيرة !!!"..

تدخل الممرضة المنتظرة بأساريرها المنفرجة ، وبسمة تعتلي فمها، وثغرة بارزة على خدها الأيمن ، وحاجباها الملتقيين في أسفل جبينها الأصغر، واللذين يرسمان عبوسا على وجه لا أظنه يعرف للعبوس وجودا ، بدأَت بالمرور على صاحبتنا ذات القلب المثقوب ، ثم إلى النائمة التي لحد الآن لم أعرف مصابها ، لتختتم بي مهمتها .

فحصت الملف المعلق عند أرجلي ، وألقت نظرة على الكيس ، لكن مهمتها لم تمنعها عن الكلام ، فكانت تجوب الغرفة بعباراتها المرحة المريحة ، وقفت عند رأسي ، تعاملني وكأني فتى في عقده الثالث ، فتارة تتحدث معي لتطمئن عن حالي وتطمئنني ، وتارة تمازحني وكم اشتقت حينها للضحك. شكوت لها سوء أحوال الغرفة ، وأخبرتني عن سوء أحوال المستشفى ، غادرت الغرفة لتتفحص باقي المرضى في الغرف المجاورة ، تاركة بسمة على وجهي الشاحب ، وهدوء خيم الأجواء ، ولكن ما ذاك إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة.

دخل علينا طبيب ، مباشرة اتجه إلى الملف يتفحصه باهتمام ملحوظ ، وبنظرات تثير الشكوك ، يمشي بين سريري وسرير والدتي جيئة و ذهابا ، أولاني ظهره ليتمتم بكلمات على مسامع أمي ، ويده اليمنى تشير إلى موضع الساعة في يده اليسرى ؛ إشارة إلى توقيت ما ...

أنهى حديثه وغادر الغرفة ليتركني أسبح في بحر ، لا شاطئ له ولا مد ولا جزر، عالم من الأهوال والشكوك...

وقفت والدتي على أرجلها ، وعيناها اغرورقتا بالعطف والشفقة لتمد لي بيمينها قنينة ماء ، أخذتها باستغراب ، شرعت في الشرب ، ولا تزال تطلب مني أن لا

أتوقف حتى أنهي متن القنينة ، كانت القنينة من الحجم الكبير ، لم تكن مملوءة عن آخرها ، ولا خاوية على عروشها .

وأنا أشرب ، أتذكر تلك اللحظات بعد السحور ، التي نشرب فيها حتى تترنح بطوننا ، بغية تخزين المياه ، قصد قضاء اليوم دون الاحساس بالعطش ، كأننا إبل أو نوق ، رفعت يدي اليمنى لأنظر في ساعتي -التي عهدتها في يدي اليسرى- لأجد الحادية عشرة والنصف ليلا ، تمنيت لأمي - التي تمد يدها لتطفئ الأنوار- ليلة سعيدة ، لأدخل بعدها في غيبوبة من النعاس .

اليوم الثالث

"إن الطبيب الذي أتانا بالأمس ، والذي تحدث إلي بهمس ، قد حرم علينا الطعام والشراب لمدة قليلة لا تزيد عن أربع وعشرين ساعة..."

في الصباح غزاني صداع سرير تجره عاملة النظافة ليوقظني من سباتي ، فما علي إلا أن ألقي عليها بعضا من دعواتي البريئة وتعاويذي الصباحية ، جراء فعلتها . ياله من صباح مميز ليوم مميز!!

-"الآن لا يسعني إلا أن أطلب منكم أن تضعوا أصابعكم في آذانكم ، ولحافا على أعينكم ، وكمامة على بقية وجوهكم ، فالمشاهد التالية لا تناسب الجمهور الناشئ"..

وأنا أنتظر والدتي لتفرغ من صلاتها ، أرى صاحبتنا النائمة لأول مرة تقف على أرجلها مهرولة إلى مغسل الأيادي خاصتي ، لترفعه عن الأرض دون إذني ، لتقربه إلى وجهها، كل ذلك في ثوان معدودة ، ثم أرى سائلا أخضرا لزجا يخرج من فمها وكأنه حساء الفول ، مرة أخرى رفعت يدي إلى السماء لأرسل وابلا من الدعوات السامة إلى عاملة النظافة ، التي جعلتني أشاهد هذا العفن.

بعد انتهاء والدتي من صلاتها ، طلبت منها أن

تصطحبني إلى دورة المياه ، أشارت لي بكلتا يديها أن أصبر حتى تنتهي من التسبيح و الدعاء ، وذاك ما فعلت ، لأنه لا حاجة لي في دورة المياه ، وإنما فقط أريد أن أتحرر من قيود الغرفة ولو لبرهة من الزمن ، اشتهت أعيني أن ترى ألوانا جديدة ، وأناسا جدد و... سمعتها قالت:

_"...والحمد لله رب العالمين"

أنظر إليها تطوي السجادة كما يطوى اللحاف ، وتضعها في كيس ثوبي أسود منقوش عليه صورة لمسجد تحت ضوء القمر ليلة هلاله ، تدلفه داخل كيس بلاستيكي شفاف بعد أن طبقت أصابعها على شريطه اللاصق ، وضعتها على خزانة بجانب سريرها.

وأنا أحاول جاهدا أن أقوم من مكاني ولكن دون جدوى، ساعدتني أمي على النهوض ، في تلك اللحظة بالضبط أحسست بضعف موحش ، رجلاي صارا كرجلي صبي لم يجرب قط مشيا ، أو عجوز بلغ من العمر ثمانين وثمانية ، نعم في تلك اللحظة لم أميز هل أخطوا أول خطواتي أم آخرها؟

أسير متوكئا على ذاك العمود بشمالي ، ويميني تمسك بها والدتي بإحكام ، يخرج النفس من فاهي وكأنه نحيب ، مصحوب برعشة سارت في جسدي مسير التيار ، كل هذا وذاك وأنا أنظر إلى الباب وكأنه هدف يصعب بلوغه ، أمشي وأتخيله ينفتح ، لأجد ممر مشرق بأضواء الشمس المنبعثة من منافد الإغاثة في سقفه ، والتي تمتد من طرف إلى طرف، ورائحة زكية تغطي رائحة المعقم ، أما الجدران فنظيفة لا خدش فيها ، ولوحات معلقة عليها ، ناهيك عن الأطباء والممرضين ، يتحركون بهمة وخفة خلف مهامهم ، من بينهم تلك الممرضة صاحبة الوجه الطفولي ، تستقبلني بكرسي متحرك لتسير بي إلى حديقة وراء الجناح الذي أتواجد فيه ، لأرى صفوفا من الفل والياسمين ، وأشجار الصنوبر ، ونافورة سداسية ، ومقاعد للاستراحة ، ومكان مخصص للمطالعة ، مكون من خُزَيْنَة للكتب والروايات ، مسقف بقبة معتمة ، فيه دائرة من الأرائك ، تتوسطهن طاولة تقبع تحت مزهرية ومجلات ، جداريات هنا وهناك ، صاحب النظافة في زيه أنيق ، ولكل مريض ممرض رفيق ، صادفنا طبيبا في تعامله رقيق ، قصاص عشب في حساباته دقيق ، نوافذ الغرف يشع منهن بريق ...

والآن حان الوقت الذي فيه من خيالنا نستفيق ، وصلنا إلى ذاك الباب ، تدفعه والدتي برجلها ، فأول ما أتعس روحي

رائحة المعقم ، أبشع رائحة على الإطلاق ، يليها ممر شبه مظلم بسقفه المنحدر ، تتخلله الأضواء المنبعثة من نويفذات أبواب الغرف المطلة عليه ، وصراخ المرضى وزمجرة الممرضين ، وعويل أرملة ونحيب يتيم ، كل هذا ونحن مازلنا في بداية جولتنا .

نشق طريقنا مولين وجوهنا إلى دورة المياه ، نمر على مريض مرمي في طريقنا ، سمعته يخبر ممرض أنه أصيب بكسور إثر مشاركته في حادثة سير على متن دراجته النارية، وهو يتسابق مع الزمن ، ليصل به الحال أن يمتد بين جدران هذا المكان السعيد ، فليس له اليوم ها هنا أخ شفيق ، ولا حميم صديق ، إلا ذبابتين ، واحدة تحوم حول بؤبؤه الأيمن، والثانية تخطوا ذهابا وإيابا على شفتيه الباردتين المرتعشتين، والدماء تسيل من منخريه لتفقد طريقها داخل شاربه الخفيف ، ورعشة تهزه هزا وكأنه تعرض للصعق ، ظهر سترته يوحي على احتكاكه بالطريق ، ساعته مجوفة ساكنة العقارب ، أما حذائه فقد ترك فردة في مضمار السباق الذي عاد فيه منهزما .

يجر جسده زاحفا كأيفار الكسيح ، ليسند ظهره إلى حائط غرفة تنزل فيها فتاة أكبرها بقليل ، كنت قد سمعت قصة عنها وأنا أسيرُ سريري ، كانت تصارع نفس مرضي ،

إلا أن حالتها أصعب بكثير من حالتي ، فقد أجرت عملية ناجحة ، لكن ما وقع بعدها أفظع ، فقد تقيح موضع العملية ، وانحلت خيوطها ، وسالت دماؤها ...

أنظر إلى مستقبلي ومآلي الذي ينتظرني. كل صرخة تزفر بها يستقبلها صدري كطعنات ، لو تقدمت بشكوى إلى مركز الشرطة لربحت القضية و لأزجت بها في سجن مؤبد مع أعمال شاقة ، ولكن في الحقيقة انبجس داخلي شعور الشفقة لأن حالتها تدمي العين ، وتشق القلب ، وتزلزل العواطف ، وما شدني في تلابيبي ، وتغلغل في أعماقي ، دموع والدتها المسكينة الحنونة ، التي لا تستريح من سعيها بين غرفة ابنتها وبين مكتب الطبيب جيئة وذهابا ، سعي هاجر عليها السلام...

مرة أخرى تهزه هزا ، ذاك الشاب المسند ظهره المترنح على الجدار ، جاءته رعشة متملكة متسلطة ، أجبرته على الرقص على ألحانها ، وعلى دف دفوفها وطبل طبولها..
تجشت نفسيتي سموما ، لم أعتد على كل هذه الألوان المشؤومة !!!
- حال المريضة المحتضرة...
- وحال الأم الحنونة العطوفة...

- وحالة الشاب المزرية و الجد مهترئة...

لم أخرج من دوامةٍ هذه إلا على جر لطيف ، مصحوب بنداءات وكأن أحدا يوقظني من سباتي...

"محمد!! محمد!!"

أشحت بنظري إلى صوت المنادي ، مرورا بأعيني على الشاب المسكين ، فإذا هي والدتي تحثني على السير، ألقيت نظرة أخيرة فضولية على الغرفة ، لتركن أعيني على كومة من الأوراق والأقلام ودفتر ، مباشرة أدركت أن ذاك ما ينقصني ، خصوصا في مكان كهذا ، لا أصحاب يؤنسوني ، ولا ألعاب أستأنس بها ، ولا رسوم متحركة ألتهي بها ، فقط جدران جُدُر صماء، جروح وكسور ودماء ، مربوطون بأكياس وأنابيب ولا دواء...

أجبرت رجلاي على التقدم ، كنت أظن أنهما مخدرتان، ولكن بعد جر لطيف من والدتي استعادا نشاطهما ، وكانت لهم تلك الجرة كحافز محفز ، أتقدم بخطواتي المتثاقلة ، متحديا جزيئات الهواء ، طول الطريق أفكر في إن كانت حالتي ستسمح لي بالكتابة ، والكيفية التي سأكتب بها وأنا

دائم الاستلقاء ، كل ذلك لن يمنعني في محاولتي للحصول على قلم ودفتر.

كنت مضطربا ، وقلبي تركض نبضاته داخل صدري جاعلة منه حلبة للسباق ، كلما نبتعد عن مكان وقوفنا قبل قليل ، إلا ونقترب من صراخات ونداءات ، نقترب وتقترب.. نقترب وتقترب .. إلى أن أتممنا طول الممر، فانعرجنا يسارا، وياليتنا لم نفعل !!!

توقف قلبي عن النبض فجأة ، وصدري عن التنفس ، واجتاحني فزع مهول...

_"قبل أن أخبركم ، أذكركم والذكرى تنفع المومنين ، هذا لا يناسب الجمهور الناشئ ، فلتضعوا أصابعكم في آذانكم ، ولحافا على أعينكم ، والبقية في أذهانكم ..."

- "أوتعلمون ما تجلى أمامي ؟؟ أو تعلمون ؟؟
ولا واحدة من إحترازاتكم صائبة ... ولا افترازاتكم صحيحة..."

عويل أرملة ... ونحيب أيتام ... وسكون الأب...

امرأة أربعينية في هيئة خمسينية ، تنتف شعرها ، وتصيح بأعلى صوتها ، وقد فاضت دموعها، حاملة رضيعها على ظهرها...

بريء لم يطلع على سطور الحياة بعد ، ولم تظهر له الدنيا أنيابها ، ولم تمد إليه مخالبها ، أحاط إبهامه بشفتيه بكل براءة ، وأخذ يحملق بعينيه -التي لم تنتعش بوالده بعد- في مصباح متذبذب الإنارة ، لو علم بأمر تلك الجثة الهامدة الساكنة لركز عليها أنظاره، ولسلط عليها جوارحه ، ليرتوي ولو بسكونه قبل أن توارى عليه حفنةَ تراب...

رجل في أواخر خمسيناته ، والشيب قد اختار مواضعا في رأسه بعشوائية ليَغِير عليها ، ويضع فيها ركائزه قبل أن يحتل باقي المناطق ، وذلك شيء لم يفعله في لحيته ، فقد اختار فيها مكانه بدقة وهندسية، ليتمركز بالضبط في وسط ذقنه ، فاغرا فاه ، شاخصا إلى السقف بصره ...

تمسك بيده فتاة حسناء ، لم تغير الدموع ملامحها ، بل زادت لها حمرة على وجنتيها ، مرة تطبع قبلة على جبين أبيها ، ومرة تضمه إلى صدرها، وأخرى تضع رأسها في حجرها ، وتمطر وجهه بدموعها ...

ولكن ما ملك أنظاري بشدة في ذلك الموقف ، واحتل اهتمامي ، وأسر جوارحي ، واقشعرت له أحاسيسي ، هو

ذاك الشبل المنزوي عن أسرته ببضع مترات ، ليسلم نفسه لأحد زوايا الممر المخيف .

أنظر إليه وهو جالس جلسة نيوتن إسحاق تحت شجرة كانت تظله دائما ، ثمارها صبر وسند وأمان ، أوراقها عطاء واهتمام وحنان ، شجرة لا تتساقط منها الأوراق أو ثمار التفاح ، وإنما تتساقط منها الحكمة ... وليست بالشجرة المباركة التي تسقينا زيت الزيتون ، وإنما هي شجرة يُخرج من عصارتها دليلا نستدل به للخروج من متاهة الصحاري القاحلة ، دليلا نستدل به لبلوغ قمم هائلة ، دليلا نستدل به للنجاة من هذه الحياة بخسائر قليلة ، شجرة أصلها الأبوة وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

ولكن كل ذلك كان قبل أن يأتيها جلالة السيد منون ، وبيده فأس ، وقد شمر ثيابه ، وكشر عن أنيابه ، يرفع فأسه إلى عنان السماء ، لينزل به على ساق الشجرة ، يضرب ويصيح:

_" والله ما نقصت عمرا ... ولا منعت رزقا ..."
يضرب ... ويضرب ، إلى أن بدأت الشجرة في الانحناء ، ورسمت بطولها في الهواء ربع دائرة ، لتخر على الابن صعِقةً ، كل هذا قرأته في عيني ابن المشمول برحمة الله ، وهو يقف على أرجله ، مسندا إلى الجدار رأسه ، رافعا إلى

السماء أكفه ، وأخذ يقول وهو مغمضٌ عينيه : " اللهم لا اعتراض على قضائك، اللهم لا اعتراض ... وإنا لله وإنا إليه راجعون"

وضعت يدي على عنقي ، ورددت رأسي إلى الوراء ، كلما أطلقت نفسًا ، أجذب نفسا أقوى ، حتى أوشك الهواء على النفاذ من حولنا ، لملمت شظايا قوتي ، وذكرت اسم الله ، وقلت لوالدتي بصوت يغلب عليه الحرج :

_"أمي هلا رجعنا إلى الغرفة..؟؟؟"

فأجابتني باستغراب :

_"أوليست لك في دورة المياه حاجة..؟؟؟"

أجبتها وأنا مطأطئ رأسي :

_"أوبعد كل ما رأيت ؟؟ تلك الحاجة قضيت ... والآن ابتعدي عن موقفك ولو ببضع سنتميترات ، إكراما للجنة التي تحت قدميك ، وأسرعي بنا فإني لا أطيق برودة سروالي..."

فارتدنا على آثارنا قاصدين زنزانتي...
أمشي وكأني أسيرُ في مكان واحد...
أمشي وكأن الأرض تسير تحتي مسير السحاب...
أمشي ثقيلا.. ثقيلا ، كأني على موعد مع إحدى الخسائر...
أمشي بين أرواح نزعت...
أمشي بين نفوس شهقت...
أمشي...
وأمشي...
ثم أمشي...
إلى أن وصلنا غرفة تلك الفتاة ، فوجدنا الشاب في مكانه ، والبنت في سريرها ، لم يزد شيء في ذاك المكان إلا بركة من الدماء منحت للمكان إضافة ملونة، مع تناغم هتافات الشاب مع هتافات والدة الفتاة ، وهم يصرخون ملء حناجرهم بنداءات ذهبت مع الريح سدى ، لا أريد أن أتعلق بهم مرة أخرى ، فقلت لوالدتي:

_"عجلي ، عجلي.."

لم نبتعد أكثر من خمس خطوات تقريبا إلا واحتضنتني نوبة سعال شديدة هجينة ، كادت أن تزهق روحي معها ، والدتي المسكينة واقفة في مكانها حائرة، لا تدري كيف

تتصرف ، هل تتركني لتجلب لي المياه...؟؟ أم تبقى معي تشاهدني أتخبط وأختنق ؟؟

وأنا في تلك الحالة هجمت على خيالي جحافل أفكار قاتمة، وأنا أتخبط في ظلمات موقفي القاتل ، تخيلت الموت الشنيع أصنافا وألوانا ، لم ينقذني من تلك البركة العميقة الغارقة إلا خطاب أمي مع أحدهم قائلة:

_"فليجعل الله لك في حوض النبي نصيب.. وليشفي ابنتك عاجلا غير آجل.."

عندها تيقنت أنها تخاطب أم المريضة ، أحسست بعنق قنينة توضع على شفتاي الزرقاوين ، وما كان مني إلا أن انقضضت على القنينة لأغرق أحشائي بما تحتويه من ماء ، ولكن أمي حالت بيني وبين ذلك ، نظرت إليها مستغربا مستفسرا ، فقالت لي:

_"إن الطبيب الذي أتانا بالأمس ، والذي تحدث إلي بهمس، قد حرم علينا الطعام والشراب لمدة قليلة لا تزيد عن أربع وعشرين ساعة..."

_"ماذا..؟؟

أوَ قلت أربع وعشرون ساعة ؟؟"

يا لسذاجة أسلوبك الدرامي يا أماه..!!! أتريدين أن ترسمي لي الوقت في راحة يدي وكأنه دقائق... إنها أربع وعشرون ساعة يا أماه..!! أربع وعشرون ساعة...!! أتريدين أن تغريني بحروفك الحنونة يا أماه، أتريدين أن أعيش أربع وعشرون ساعة في صحراء مزركشة...!!

فقلت لها مطمئنا إياها:

_"كل شيء في سبيل الشفاء يهون..."

أخذت المرأة دورها في الكلام فنطقت بكلمات خرجت من فمها شرارة مرارة:

_"ضروري أنك سمعت بما حل بابنتي بعد خروجها من العملية..؟؟ "

فحركت رأسي إيجابا ، ونظرت إليها نظرات الآسف ، فقالت:

_"إن الطبيب لم يمنع عن ابنتي الطعام والشراب لأربع

وعشرين ساعة ، ولا ليومين ولا لثلاث ، وإنما منع عليها ما منع لخمسة أيام ، نعم خمسة أيام بالتمام والكمال.."

يا ويلي !! لا أدري هل أرتاح لحالي ؟؟

أم أفزع خوفا من أن يصير حالي لذاك الحال ؟؟

فتنهدت وقلت:

_"الحمد لله على أربع وعشرين ساعة"

_" أراكم تضايقتم من تكرار الساعات ، وذاك لأنكم لم تعرفوا شعوري ، وأنا أحسب الساعات.. بل الدقائق.. بل الثواني.. وإن لم أخف أن أبالغ لقلت رمشات عيني كما يحسب المسجون أيام حبسه".

توادعت النساء... كل واحدة منهن سارت في طريقها إلى غرفة فلذة كبدها ، وفي صدرها قلب جريح لا يكف عن الأنين ، وبين كل هذا يرتعش فيه حالي كورقة في مهب الريح ، تتلاعب بي الأهوال والمصائب، وأرى الموت ينظر إلي من بعيد ، نظرات الصياد الحاذق المتمرس الذي لا يخطئ هدفا ، لكني لم أعبأ له ولم أرد إليه بالا ، لعلمي أنه

سيكون أرحم مما أنا عليه.

تصارعت مع الزمهرير الذي احتل الممر، بردائي الصيفي الخفيف الذي لا يحجب بردا ، ولا يتقي صقيعا...

"نعم أعلم أنه فصل الصيف ، ولكن أخوكم في حالة غير طبيعية... وله مناعة هشة ، قتلتها الهموم ، والحال السموم..."

حكمت قبضتي على العمود وتمسكت بأمي ، وبدأنا السير وأنا منكس الرأس ، حزين الوجه ، مغتم النفس ، وكان الخوف من المجهول يشحذ حواسي ويشحنها بأسوء الاحتمالات ، وأفظع التخيلات ، وأبشع التمثلات...
نمشي بتُؤدة بين الجدران المملة الخالية من عبق الحياة ، وتحت سقف شقه الدهر، وشقته كثرة الأرواح العابرة منه..
ها نحن وصلنا إلى باب الغرفة بشقيه وبلونه الرمادي المشؤوم ، تتوسطهم نويفذات من زجاج شبه شفاف ، فكما فتحته أمي برجلها أثناء خروجنا ، كذلك قامت بدفعه إلى الداخل ، لكون الباب يفتح إلى الداخل وإلى الخارج .

دخلت بنظرات عيني الجاحظتين ، وبخطواتي المترددة الوجلة ، أطلقت سراح أنظاري لتجول في الغرفة لأراها من

هذا المنظور ، ومن هذه الزاوية التي أقف فيها ، لأنظر إلى فصوص المجسمات التي تعطيني بظهرها وأنا مستلق في سريري ، رفعت رأسي أنظر إلى السقف الغني عن التعريف فلم أجد فيه جديد مثير، إلا أنني ركزت نظري في مركزه أنظر إلى مصباح يتيم لطيم مدلى بخيطه الملولب ، وقد غزاه سرب خشرم من الذباب ، وخلفت عليه سوادا ، ونظرت إلى يميني فوجدت ذات القلب المريض ، متكئة على سريرها ، واضعة رأسها على وسادة مزركشة بوريدات مسح الدهر الفظ ألوانها ، وذهب بعبقها ورحيقها ، ولكن أين الجديد ؟؟ إنه الدهر الذي يلين أمامه الحديد ، ويأخذ للضعيف حقه من كل صنديد ، ووشاح معتم تضعه على رأسها حجابا ، وفي يمينها منديل ورقي تمسح به دموعها...
سألتها والدتي:

_"ما الخطب ؟؟؟"

فقالت:
_"لا أعلم ماحل بها ، أظنها راحلة ..."

نظرت إلى موضع سرير النائمة فلم أجد إلا سكونا... ولا حركة... ولا حتى سريرا...

ما هذا ؟؟؟
ما تعني هذه بالرحيل ؟؟
أخلُصت المرأة من تداويها ؟؟
أراحلة إلى بيتها ؟؟
ولكن لم الدموع ؟؟
أدموع الفراق هم ؟؟
أم أن المرأة توفيت حقا ؟؟
لا.. لا.. لا يمكن !!
فقبل قليل رأيتها واقفة على رجليها...
قبل قليل رأيتها استعملت مغسل الأيادي خاصتي...
وليس ببعيد لما رأيتها تعود أدراجها إلى سريرها بخطى ثابتة، لم يشوبها اعوجاج ، ولم يخالطها ميلان...
تخطوا خطوات الراجل المعافى...
ولا يمكن أن تكون الآن قد ماتت ، أو يمكن أن تكون ميتة...
يا ويلي !!! هل أنا مجنون أبله؟؟ أم أنا صغير لا يفقه ؟؟
وقد تكون بحق ميتة ، ففي هذا المكان يتعاقب فيه الموت والحياة تعاقب الليل والنهار...
عادت أمي تسأل:

_"بربك أجيبي ، ماذا حل بالمرأة ؟؟"

فاسترسلت في الجواب قائلة:

_"جاءتها رعشة تهز بجسدها هزا مخيفا ، حتى صار جسدها يرفرف كما يرفرف الطائر المذبوح ، فأسعفتها ممرضة قبل أن تجري اتصالا طارئا ، ليأتي بعدها طبيب ومعه ممرضين وممرضات ، لم يلبثوا إلا قليلا حتى أمرهم أن ينقلوها إلى مكان لا أذكره ، لكونه أشار عليه بلغة أجنبية، فأخرجوها بشحمها ولحمها وسريرها ، ولم تخلف ورائها إلا قنينة ماء ، وعلبة المناديل ، وعلبتَي ياغورت ، وشيء في الخزانة لم أتفقدها بعد... "

يا لشر أبطنته هذه الخبيثة !!
وقد كنت أحسبها عاقلة طيبة ، لم تتأكد من حالة السيدة بعد ، إلا وأخذت تحسب الحسبان لما خلفته وكأنها وارثة إياها ، ولبئس المرأة هي ، شريكة في المغنم لا شريكة في المغرم...

_"أماه !! ارفقي بي وخذيني إلى سريري إكراما لمسامعك ومسامعي ، فلا طاقة لي لسماع المزيد"

قلتها وأنا منحني الرأس وكأني أتحدث إلى الجدران ، مرة أخرى قلت لها:

_"أمي!! إلى السرير .."

ما من مجيب ، نظرت إليها لأجد عيناها اغرورقت ، فلم تلبث حتى دمعت ، واسترسلت فهمت، وما سكنت حتى نحبت ونشجت ، يا لمشاعركن يا نسوة !!!
وأنا واقف وقفة دوبي في ثوبه الخفيف ، وعينيه الفاغرتان، وأنفه المعقوف ، وبيديه الهزيلتين... ولأول مرة -مذ دخلت إلى هذا الجحيم- أنظر إلى السرير مشتهيا إياه ، ومتلذذا إلى صوته المزعج، وبرائحته النتنة ، وبإزاره الذي كان من قبل أبيضا ، وبوسادتي ، وغطائي ، وتلك الحفرة.. نعم تلك الحفرة التي دائما ما آوتني واحتوتني ، ومن وحش الارهاق حمتني ، ومن بعبع التعب احتضنتني ، رفعت الراية البيضاء، وقلت لأمي بصوت نحيب ، وبنفس رهيب:

_"أمي ضعيني في سريري ، فلم أعد أستطيع أن أرتكز على رجلاي"

استجابت لي بعد أن تأثرت بكلماتي الواهنة المتلعثمة ، فأحاطتني بعناية حتى سكنت جوارحي على السرير ، فخطت خطوات متثاقلة إلى سريرها...

علقت ما مررت به في سقف ، واستلقيت مهموما أتأمل ، وفي آذاني خفافيش معلقة ، تشدو بترنيمات مشؤومة...
والحق الحق أقول:

"إن حالي كمقطع تمثيلي متكامل لمشهد حزين درامي، أنا

البطل فيه المتقن لدوره !!"

إلتفت إلى أمي باعتبارها نقطة ضوء لي في هاته القلعة المهجورة ، والمسكونة بأطياف النفوس المشهوقة ، لأراها تقوم بوضع قطعة بسكويت في فمها بخفة كي لا أراها وأنا الذي منع علي الطعام والشراب ، حقا هنا أحسست بوخزة لا أعلم نوعها...
أوخزة ألم هي؟؟
أم وخزة ندم؟؟
أوشفقة..؟؟
أو لا أدري..

حتى والدتي لم تحظى بحرية في تناول طعامها، ولأتيح لها المجال ، أدرت وجهي ، واتكأت على جنبي، لأدير لها ظهري ، حتى تأكل براحتها...

ولكي أخبركم عن والدتي ، فسيخصني كتاب خاص بها ، من إسم الكتاب إلى السطر الأخير من الفهرس ، بل حتى إلى الصفحة الفارغة التي تلي الفهرس ، عفوا بل إلى آخر الغلاف الخلفي للكتاب...

بمجرد التفكير في والدتي ، تندلع في داخلي رغبة في الارتماء عند أقدامها ، أقبلها وأتحسس ريح الجنان وزعفرانها وأنهارها التي جعلها الله سارية تحت قدميها ، وإنه لشيء يفوق الشرف أن أتذلل أمامها وهي التي أغرقتني دلالا ، وأعفر بدني في التراب ، ليس جزاء لما فعلته وما قدمته لي ، بل تقديرا لمجهوداتها وأمومتها ، أما جزاؤها فعند الله مولاي ومولاها...

وأنا موليا ظهري لوالدتي المسكينة الجائعة ، ووجهي لنافذة الاغاثة ، تراءت لي جملة ، بخط دقيق مكتوبة ، الظاهر أنها كتبت بيد مرتعشة ، أو شبه أمية، أو تعود لشخص مهترئ في آخر سويعات حياته، والعارف بمصيره ، حيث كتب قائلا:

"هنا مقتل عبد ربه أتعس بن تعيس"

ولكن كما أعرف وتعرفون ، أن هاته الأسماء ليست لها وجودا ، خصوصا في مجتمعنا ، فتأملت بعد أن تأثرت ، ثم تأولت بأن ذاك الهالك اسمه سيكون "أسعد بن سعيد"...

-"نعم، أعرف أني متوقد ذكاء، ولذلك فلكم الحق في أن

تقوموا وتصفقوا لما استنتجته مخيلتي المغرورة ".

رسمت على محياي بسمة ، فقدت فيها أملا ؛ إذ ظننت أنها علي راحلة ، ذكرتني بوجوه الأبطال المقبلين على منصة الاعدام ، بوجوههم المشرقة ، وبعيونهم البراقة ، ولكن شتان ما بين أن تموت ، وقد قمت بعمل بطولي ، يشهد به لك عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وبين أن تموت متعفنا بين أربع جدران، عشت بينهم مقتبرا محتقرا ...

أتصنع الوجه الثابت أمام موجات المرض العاتية ، والهادئ أمام صراخات الألم العالية ، وفي داخلي تدفقات حمم بركانية ، وليال عاصفية ، وتيارات برقية، وفي أحشائي مصارعة ثيران إسبانية... ويفتح الباب ومعه صوت شبه مألوف ...

_"أهلا بالبطل المريح.."

وأجيب...

_"أهلا بالوجه المليح.."

_"كيف الحال ؟؟"

_"تنظرين إليه ، حي ومريض "

_"أراك اليوم فصيح !!"

_"نعم ، ولولا الصبر لكنت أصيح.."

ثم اجتاز الكلام السؤال عن أحوال الحال، وبعد مقال ثم مقال ، والممرضة حقا عندها ما يقال ، وشاركَنا في الحديث دخيل ، المعدة بحروفها المتغرغرة ، أصدرتها بعد أن عاشت يوم ذي مسغبة ، وأطلقت الممرضة ضحكة خفيفة ، لطفت بها المكان ، ونظفت به شر مكان ، وخففت به شر ما كان ، وحاولت أن أكسب شفقتها ، وأثير عاطفتها ، لعل وعسى أن يرق فؤادها لي ، ثم تأذن لي بتناول الطعام،

-وبعدها قالت : "أجائع ؟"

فابتسمت بخبث بعد أن علمت أني نجحت في خداعها بكلماتي الأليمة ، وبعيوني الحزينة المتصنعة ، فأجبتها أن الحال يغني عن المقال..

-فقالت : "إذا سأطعمك .."

فبدأت بتخيلها وهي تمشي خلف عربة متنقلة ، عليها من الطعام والشراب ما لذ وطاب ، ولكن .. وويلي من لكن..، أراها تحمل مرة أخرى الكيس الذي أرهقني ذكره ، فقامت بتركيبه ، وضبط قطراته ، فقالت:

"هذا طعامك وشرابك وكل ما ستقتات منه حتى حين"

فأدرت عنها وجهي ، بعد أن تبخرت تخيلاتي ، وانتظرت انصرافها ، ولكنها قامت بالالتفاف حول سريري ، وأثنت ركبتيها لتحدثني ، فأخبرتني بأن في الكيس كل الفواكه والخضر والبسكويت الذي أحبه ، وحتى السكاكر والمكسرات، فبالطبع كأي طفل صدقتها ، بل وأضفت متذمرا قائلا :
-" لا أريد الخضر .. "

فقامت مرة أخرى إلى الكيس تقلبه بين يديها بعدها قالت :

-"ها قد أزلت الخضر .. "

وأطلقت ضحكة بريئة في الوقت الذي تنظر فيه إلي

بنظرات يملؤهن العطف .. أو لا أدري !!
ثم طبعت قبلة على جبيني بشفاهها التي تغطيهن بالكمامة الوقائية ، وودعتني ووالدتي لكي تستأنف خدمتها ، ووالدتي تدعوا لها بخير ، وبكل الخير شكرا لتعاملها الطيب معنا في هذا المكان الذي تعد فيه الطيبة شبه منعدمة ، والتفتت إلي والدتي تسألني إن كنت أريد شيئا ، فقلت لها مستفسرا :

_"لماذا منع الطبيب عني الطعام والشراب ؟؟"

بعد لحظة صمت قالت :

-"فقط يريد أن يختبر قوتك لكي يسمح لك بالخروج والعودة إلى المنزل.."

فأجبتها أن حسنا ، بعد أن أحسست بها مرتبكة ، ولاحظت في كلام جوابها ركاكة . بدأت والدتي تجذب أطراف الحديث مع المريضة تسألها عن أي شيء فقط كي لا أطرح المزيد من الأسئلة ، وفي سكوتي ذاك عادت جحافل أحداث ذلك اليوم تغزوا تفكيري .. وعقلي يقول :

ترى أين وصل نزيف ذاك الشاب؟

ترى أين وصلت صراخات الفتاة؟
ترى أين وصلت والدتها أما زالت تجري بحثا عن الطبيب؟
ترى أين وصل الرجل الميت ، هل وجد من يكرمه بجنازة لائقة؟
ترى أين وصل حال أسرته؟
ترى...؟
ترى...؟
ترى أين وصل حالي وإلى أين سيصل ؟
ترى أي مصير ينتظرني؟

قطع دوامة تفكيري صوت حركة مرورية في الممر ، إنه وقت الزيارة ، سمعت أصوات ضحكات مألوفة ، بعدها يفتح الباب ، إنهم إخوتي ووالدي جاؤوا لزيارتي ، وفي أياديهم أكياس تحوي فواكه وعصائر و... وفي تلك اللحظة الحميمية ، رأيت تغيرات في ملامح والدتي وكأنها تشير لهم بشيء ، ولكن عناقات أخي الصغير لي جعلتني أتجاهل تلك الاشارات، ورغم ذلك لاحظت حركة عند سرير والدتي وتجاهلتها أيضا .

لا أدري هل المكان هو من قتل في داخلي روح الاستكشاف ، أم أنني أتقنت فن التجاهل ، أم كليهما ؟؟

تسلمت من كل واحد منهم قبلات حارة وعناقات حميمية لا طاقة لي بهن ، واكتسبت دفئا من يد والدي الحنون الموضوعة فوق رأسي ، فاستعنت بها للتخلص من صقيع المكان ، ثم جلسوا ملتفين حولي يتحدثون ، وأمي تحكي لهم ظروفنا وحالات أوضاعنا ، وكلهم ءاذان مصغية ، إلا أخي الصغير والمشاكس ، والذي أحبه في هذا الكون أكثر من غيره ، حينها مازال آخر العنقود ، فلم يترك مكانا إلا ولطخه ببصماته البريئة ، ولم يترك مكانا إلا وقام فيه بدوراته التفتيشية .

في الوقت الذي أنا فيه مكبل بأغلال المرض وأسيرا في وكره ، كان أخي في قمة السعادة ، ليس لمرضي ، ولكن لعلمه أني ما دمت مريضا فلن يذهب إلى المسجد ، ولا ألومه، فلو تبادلنا الأماكن لكنت أكثر سعادة منه ، وأنا مشغول الذهن بأخي وركضاته وقفزاته ، بإشارة من والدتي قامت أختي بإخفاء ما جلبوه معهم من عصائر وفواكه...

وقت الزيارة مر مرور الكرام ، ولم أشبع النظر في أبي وإخوتي ، ولم أخلص بعد من شحن فؤادي بعطفهم، ولم أمل بعد من تصرفات أخي ، ولم ... ولم... عاد الصمت يسيطر على الممر ، وعادت الأوضاع لحالها ، كما عادت حليمة

لعادتها القديمة . قامت أمي بتعديل وسادة رأسي وبطانيتي ، وانتظرتُ حتى مر من الزمن أطوله ، وسألت والدتي:

_"ما بهم اليوم ، قد أخروا عنا الطعام ؟؟"

ترددت قبل أن تجيب ، وتأخرت عني ... فتجيب:

_"أظن.. أظنهم يواجهون مشكلة ، أو أن الوقت مازال باكرا..."

فقلت:

_"الوقت ليس باكرا ، فساعة الزيارة مرت منذ زمن بعيد ، والشمس تتأهب للمغيب ، فأظنهم يواجهون مشكلة..."

كنت قد نسيت أنه منع علي الطعام والشراب ، ومن قولي استنتجت والدتي نسياني لذلك ، فقالت لي:

_"اليوم مررنا بيوم طويل ، ستكون مرهقا حتى أنك لم تقيل، فلم لا تنال قسطا من الراحة ، بينما يقومون بحل مشكلتهم ويأتوننا بطعام"..

فتذكرت شريط يومي ، وبسرعة حاولت أن أطرده في ذهني لأنام ، فأغمضت عيني ، تذكرت ذلك مرة أخرى ، فصرت أتقلب في مكاني يمينا وشمالا ، ولم أنم إلا بعد جهد جهيد ، كنت أريد أن أغفو قليلا ، ولكني سرحت في نومي ، ولم أستيقظ حتى ساد الظلام وساد الصمت .

زفرت ونظرت من حولي... فحاولت وأنا غارق في غياهب ظلام الغرفة أن أقرأ أرقام ساعتي تحت ضوئها الأصفر الجد الضئيل ، ولم أميز شيئا.. عضلات عيناي مازالتا ناعستان ، فانتظرت قليلا حتى وجد النوم إلى عيني سبيلا ، وغفوت فوجدت الظلام مازال مخيما ، فشعرت بعطش شديد ، فناديت أمي مرة ثم مرات حتى أيقظتها من نومها ، فشكوت لها عطشي، أشعلت ضوئها اليدوي ، فجعلت تغمس منديلا في الماء، وتقوم بعصره في فمي ، تذمرت أريد المزيد، فأخبرتني بأنها تنفذ أمر الطبيب.

تتشابه الليالي وتتطابق الأمسيات ، في تلك الليلة الليلاء، انحرفت الكرة الأرضية عن محور دورانها ، وتخبطت واصطدمت في جميع الأجرام السماوية ، ولم تبقي لا نجما ولا قمرا إلا وصفعته في رأسي ، وبكيفية لا إرادية وجدت نفسي مجردا من السلاح ، وأنا في مواجهة غول ، لا

طاقة لي به ، غول رهيب أشيب ، كان ينخر فيَّ العظام نخرا، ولا يدع لي لحظة واحدة لألتقط فيها أنفاسي اللاهثة..

أحسست بضعف شديد ، وبوهن موحش ، وتيقنت أن ليس فارجها إلا الله ، فرفعت أكفي متضرعا راجيا ، آملا وداعيا... "رب إني قد مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " ، ثم بدأت أستذكر سرا وخفية ما حفظته من حلقات تحفيظ القرءان على يد شيخي الوقور ، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، وبدأت باسم الله الرحمن الرحيم :"تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ..."[1] فلم ءاتي بآخرها حتى غلبني النعاس رحمة وتخفيفا علي من الله، كقوله تعالى: "إِذْ يُغْشِيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ..."[2]

[1] سورة الملك (١-٢)
[2] سورة الانفال (١١)

اليوم الرابع

"وضع كل واحد منهم يده على يتلمسني كأني الحجر الأسود، أو كإله هندي يرجون بركته ، يتلمسوني كما تفعل الجهلة بقبة صالح..."

بعد مرور ما يقارب خمس ساعات، استيقظت ، كان الصباح رائعا... والشمس بالكاد أرسلت الجيش الأول من أشعتها الذهبية ، فركت عيني لأمسح ما بهن من أثر النعاس، سمعت صوتا لم أعهده في هذا الوقت ، إنه صوت أبي ، استدرت بكامل جسدي لأتأكد فوجدته حقا أبي ، ولكن مالذي يقوله مع الطبيب .

هناك قرب باب الغرفة يقف والدي قبالة طبيب وراءه ممرضات، يبدوا من ملامحه نقاش حاد ، وأمي جالسة على طرف سريرها مولية ظهرها لي ، تراقب وتترقب نتيجة ذاك النقاش ، ألاحظ تغيرات في ملامح أبي ، وتذمرا في تصرفاته، والطبيب يتحدث بكل هدوء وبلا مبالاة ، بين لحظة وأخرى يقوم بتحسين وضعية نظاراته الرقيقة ، ويشير إلى نفسه ، بعد نقاش طويل توصلوا لحل ، وهذا الحل ليس إلا

ظرف أصفر والذي يعد بمثابة عملة لبعض مرافقنا العمومية النزيهة إن لم يكن معظمها ، والذي إلى حد ما يمكن أن نعتبره العملة التي يتداول بها ، وهذا الظرف يعطى لأصحاب الخدمات بطريقة سرية بعيدا عن الأنظار ، خوفا من ذهاب البركة عن ما يحتويه ذاك الظرف العجيب.

خرج الطبيب وحاشيته من الممرضات ، في حين أقبل أبي ليشارك الخبر مع والدتي ، ولاعتقادهم أني ما زلت نائما، تحدث معها بصوت يبلغ صداه مسمعي ، وأخبرها بأن اليوم ستجرى لي العملية ، كانت الجملة كالدبوس الذي فجر البالون...

أيها السادة ، قد بلغنا من اللحظة خبر عاجل ، كل ذلك الجوع والعطش ما هو إلا تمهيد للعملية ، وساعتها تدنو وتقترب، وما بيني وبينها إلا قاب قوسين أو أدنى ، ولأني لم أسطع تحمل الخبر ، بكيت حتى سمعا بكائي ، فالتفت والدي إلي وقام بنصف دائرة حول سريري ، وأخذ يمسح دموعي الحارقة ، ويهدئني بكلماته التي تزيل ملح الجراح ، وأمي تمسح على رأسي بيديها الحنونتين ، للحظة سكنت روحي ، وكيف لا أهدأ وأنا بين أبي العطوف ، وأمي الحنونة.

ما زلنا في ذلك الوضع حتى جاءت الممرضات ، وقد سبقتهن واحدة تقود الكرسي المتحرك ، فأمرت والديَّ أن

يسمحوا لهن بتجهيزي للعملية ، ولكن أي عملية وأي تجهيز هذا الذي يسمح للممرضات أن يجردنني من ملابسي ، فدفعني حيائي الفطري أن أصرخ في وجوههن معارضا لخدمتهن ، فناديت أبي ، لا أريدهن أن يجردنني من ثيابي ، فأحاطتني أمي بذراعيها وتقول بأنها من ستقوم بتجهيزي ، فقبلت ذلك منها...

نزلت من سريري ، وما هي إلا لحظات حتى أحسست بدوار كاد أن يسقطني أرضا ، فتمسكت بوالدتي ، ولم أصل إلى الكرسي المتحرك حتى أصبحت لا ثوبا علي ، فجلست في الكرسي لحظة ثم انتفضت من برودته ، ففرشوا لي فيه جزء من الغطاء الذي كنت ألتحفه ، وسترت نفسي بجزئه الآخر ، وكل هذا أمام الممرضات اللواتي لا حشمة لهن ، كلما التقت عيوني بعيون إحداهن إلا وأشعر بكرامتي تمرغ في التراب ، رغم أني صغير لا أرضى أن تكشف عورتي ، سترنا الله وإياكم بستره الجميل الذي ستر به نفسه فلا عين تراه ...

خرجت من الغرفة وأنا على الكرسي المتحرك تجره الممرضة ، وخلفنا باقي الممرضات ، والدموع تجري على مقلتاي كما جرت في ربوع الأرض أنهار ، نسير ونسير حتى مللت الطريق ، قطعنا مسافة ليست بالقصيرة حتى ظننت أنه خارج بي إلى مستشفى آخر ، وإن قلت مسافة ليست

بالقصيرة ، فإني أقول ذلك ليس مبالغة في الوصف ، ولا زيادة في السرد.

سرنا حتى بدأ الصوت يتناقص ويتناقص ، لم نصل إلى المكان المنشود حتى لم أعد أسمع سوى صوت عجلات الكرسي مع وقع خطوات الممرضات ، فانعطفنا يمينا حيث الممر الذي يؤدي إلى غرفة العمليات ، وقامت الممرضة بركن الكرسي أمام الغرفة وفي إحدى جنبات الممر ، فارتدن على آثارهن ، لأجد نفسي هناك وحيدا في ذلك الممر الخافت الإضاءة ، والذي بالكاد يصل إليه الصوت ، فاستكشفت المكان بدقة لأرى رجل يرقد فوق سرير ، وأنابيب موصولة برأسه تربطه بقنينة طويلة ، والرجل كان أصلع الرأس، فارط الطول ، وأسمر اللون، وكان لا يتحرك ، مستلق فوق السرير كجثة هامدة ، وأنا فوق الكرسي أرتعد وأرتعش من الخوف، وأكتم بكائي حتى لا أقوم بتنبيهه ، والمعضلة أنه أمامي فلا أستطيع أن أصرف عنه نظري ، فصرت أرقبه حتى غلبني النعاس...

استيقظت ووجدت ممرضين يحملوني ويضعوني على شيء لم أعلم ما هو ، أهو سرير؟؟ أم صليب ؟؟ المهم وضعوني على السرير المخصص للعمليات ، ربطوا يداي

ورجلاي بخيوط تتدلى من ذلك الصليب ، ورأسي موضوع على مكان يشبه مسند الرأس الموجود في السيارة .

كنت مضطربا وقلبي تركض نبضاته بسرعة ، رفعت رأسي ومسحت بأنظاري في أرجاء الغرفة ، فرأيت أصنافا وألوانا من الآلات المربوطة بمتاهة من الأسلاك الكهربائية ، وأطباق عديدة مصطفة تحمل من العدة والعتاد ما يثير الرعب في كل من يحسب نفسه جبارا، يوما بعد يوم أتأكد أن في هذه القلعة كل شيء إلا الصحة .

ظهر شخص أمامي أظنه المختص في التخدير ، وكان طويل القامة ، مربوع القد ، متين البنية ، خفيف الحركة ، باسم المحيا على ما أظن... فبدأ يتحدث معي يسألني عن إسمي فأجيبه ، ويعيد السؤال وأجيبه ، وينكر إجابتي فأؤكدها، كل هذا وهو منشغل بفتح سدادة الابرة المغروزة في يدي ، وقام بحقني بسائل شفاف ، أحسست وكأن هناك من وضع مؤخرة قدمه على يدي ليضغط عليها ضغطا خفيفا، وما هي إلا لحظات جد قليلة ، حتى رأيت كل المعدات والآلات والمصابيح والجدران والممرضين على شكل دوامة إعصار، أو بصورة تقريبية كتلك الدوامة التي تكون في حوض الماء بعد إزالة تلك السدادة التي تحبس المياه ، وكان ذلك يدور ويدور حتى وقع بين عيناي ، وهناك توقف كل شيء ، ولم أعد أتذكر ما حصل بعدها ووقع ، ولا أدري هل ما زلت

محسوبا مع الأحياء أم أني التحقت بالأموات ؟؟ ولم أدري هل سأنجو من العملية ؟؟ أم أن ساعتي قد دقت؟؟ المهم ما زلت بين أيادي الأطباء .

لم أجد طريقة أصف بها لكم الوضع ، أحاول أن أتذكر أي شيء من لحظات العملية ولكن لا جدوى ، كنت مرفوعا مخدرا ، وفي لحظاتي الأخيرة قبل أن يغمى علي ظننت أني سأطوف لا محالة بين القلاع والقبور ، وسأكتشف أراضي لم تطأها قدم بشري حي من قبل ، سرحت في غيبوبتي زمنا ما هو بالقصير.

بطريقة بطيئة درامية فتحت عيناي ، لم أصدق ... حاولت أن أتحرك فلم أستطيع ، أظن أن الروح قد عادت، وإني مقبل على امتحان ، اللجنة فيه منكر ونكير ، أمعنت النظر في السقف فوجدته سقف الغرفة، الذي أحفظه نقطة نقطة ، بلونه وتشققاته ومصباحه ، ولن يجادلني في وصفه شخص ، أخذت الحياة تعود إلى جسدي ، والأصوات بدأت تشق سبيلها إلى آذاني ، والرائحة تخترق أنفي بلا استئذان ، وكسرت سكون بدني بحركة من أصبعي السبابة ، فتنفست الصعداء ، كل شيء يمكن أن أسمح له أن يمر مر السحاب ، إلا صوت الضجة التي تضرب في أعماق طبلتي أذناي...

لا أدري لماذا التف الجميع حول سرير أمي ، فهناك أبي وهناك إخوتي ، وهناك خالي ... ولكن أليس من المفترض أن يلتفوا حول سريري أنا؟؟

تنحنحت أنبه عن حضوري ، تفاجأت من ردة فعلتهم ، وتوقف ضجتهم ، هرولوا جميعا إلى سريري هرولة رجل واحد ، فتوجست منهم خائفا ، أنظر إلى أمي والدموع قد طغت على ملامحها ، فهي التي لم تستحمل فترة غيبوبتي ، وقنطت من طول انتظار صحوتي من التخدير...
أغرقوني بقبلهم ، وهم من كل حدب ينسلون ، وضع كل واحد منهم يده علي يتلمسني كأني الحجر الأسود ، أو كإله هندي يرجون بركته ، يتلمسوني كما تفعل الجهلة بقبة صالح، خرجت من صدري تنهيدة ، تلاها صوت حنجرتي تحاول أن تقول:

_"ماذا حصل ؟"

_"حصل خير ، الحمد لله ، حصل خير.."

هذا ما يقوله أبي وقد غمرته من السعادة ما يجعلني أنظر

إليه وأتخلص من نصف آلامي ، على وجهه تلك الضحكة التي تبرز أسنانه بين شفاه محاطة بشارب خفيف ولحية ناصعة البياض ، تلك الضحكة التي تجعل لعيون أبي بريقا لا تحجبه نظاراته ، تلك الضحكة التي تزيل جبال هموم ، وتزيح عن الخاطر غموم....

هرول خالي لينادي أول من يصادف من أطباء وممرضين ، قبل بلوغه الباب ، تفتحه الممرضة وهي تقبل إلي بعد أن علمت بخروجي من قاعة العمليات ، تدخل وتجدني بين أسرتي مستلق كعادتي ، ولكن هذه المرة في مشهد مؤثر عاطفي ، وكانت كعادتها البسمة لا تغيب عن محياها ، وإن ظننتها من قبل عابسة... فقدمت لي باقة من عبارات التهنئة ، وقالت:

_"الآن تأكدت أنك بطل خارق ، لاجتيازك كل هذا"

فمدت إلي قبضتها لنتصافح كما يتصافح الأبطال في الرسومات المتحركة... وانغمسنا في الضحك رفقة إخوتي ، وأثناء ذلك تدخل خالي في إطار الصورة يسأل الممرضة :

_"متى يمكنه الخروج ؟"

فأجابته:

_"لا أدري ، ولكن بإمكاني أن أسأل لكم الطبيب"

صارعت آلامي لأطلق صيحة ، مطالبا بخروجي في الحال دون تأخير ولا تأجيل ، فطلبَت منا أن ننتظر ريثما تسأل الطبيب فتنظر لنا جوابه ، فخرجت وانتظرناها ، وطال انتظارنا.

فُتِحَ باب الغرفة ، ورميت بنظري ناحيته وكلي لهفة لما ستأتيني به الممرضة ، ولكن لم تكن هي من دخلت، وإنما جدي ، والد أمي ، دخل بيديه المملوءتين كعادته بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، بعيدا عن أنظار أمي وأبي وإخوتي ، قام بدس ورقة نقدية في يدي ، وكانت من فئة خمسون درهما ، ولم يبخل علي بقبلة طبعها على جبيني ، فشكرته على كل ذلك ، لم يكثر معي الكلام تحليا منه بآداب عيادة المريض ، فجلس على طرف سريري ، وقبل قليل خرج خالي

ينتظر الممرضة أمام الغرفة ، فلما جاءت فتح لها الباب على مصراعيه ، تدخل مباشرة وتقول:

_"أعتذر عن التأخير ، فقد كلفني الطبيب بعمل لا يمكنني تأجيله"

_"وماذا أيضا ؟؟"

هذا قولي ، وإن كان أسلوبي غير لبق ، فوضعي لا يسمح لي بالرسميات..
فاسترسلت في كلامها مخاطبة خالي:

_"وسألت الطبيب ، وبعد إلحاح شديد سمح له بالخروج ، ولكن عليه أن يرتاح أولا ، بعدها يمكن لكم أن تخرجوه"

فارتسمت على وجهي ملامح التذمر ، وتعابير المعارضة ، وحرصا على راحتي وجبرا بخاطري ، هم خالي بمعية والدي بالقيام بإجراءات خروجي ، وانتظرنا حتى انتهوا من ذلك ، وجاءونا بوجوه مكفهرة ، أظنهم واجهوا

مشكلة ، جلسوا قليلا حتى جاء موظف يقف عند الباب يسأل عن أبي ، فقام إليه ، تحدثوا قليلا ثم غابوا عن الأنظار ، مر تقريبا من الزمن ربع ساعة ، وأبي يخطوا إلى سريري يسألني عن رغبتي في الخروج ، فأجبته بكل تلهف وحماس أن بلى ، فقال:

_"إذا.. فلنخرج"

قامت والدتي بمساعدة من أختي بجمع أغراضنا ، وسادتين وأغطية وقنينات ماء وعلب ياغورت ، وما بقي من ما يؤتى إلي من الفواكه والحلويات ، في تلك الأثناء خرج خالي يبحث عن كرسي متحرك ، لم يتأخر كثيرا ، ففرشوا لي فيه غطاء ، وألبستني والدتي من الملابس ما يحافظ على تدفئتي ، فأجلسني خالي في ذاك الكرسي ، وهو يقوم بنقلي من سريري إلى الكرسي ، أحسست بوخزة جعلت أطرافي ترتعش من شدة الألم ، فكتمتها لكي لا يغيروا رأيهم ويتركوني مرة أخرى في هذا السجن المزري...

كنت أصارع في داخلي كتائب الألم ، وكأني موج يلاطم نفسه ، البحر عقلي والجسد غريق ، وكنت جالسا أراقب تحركات أختي وهي تجمع ما تجمع ، ووالدتي أراها متحمسة مثلي ، فلن يدري ما عانيته إلا من شاركني وقاسمني

الظروف ، وما زلت على ذلك الحال حتى قام خالي يدفع الكرسي ، وأختي تعود لتتأكد من عدم نسيان شيء ، فصرنا نخيط الممرات ، ونشق الطرقات ...

تعبت والله من كل هذا ، فلم أنتهي إلا وقد هلك الخف والحافر ، ولم يبقى إلا بضع انعطافات ونخرج من بطاح المستشفى ، في طريقنا نتقدم ، أرى سهام الضوء تنفلت تحت الأبواب ، وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي مني للسماء، لا سقف يحجزني ، ولا مانع يمنعني ، تنفست الصعداء.

أطلقت تنهيدة ما إن خرجت من صدري حتى تلقتها الريح فتلاشت معها ، رفعت يدي أستشعر الهواء ، وأغمضت عيناي أسمح لتيارات الريح تلطم وجهي ، وجوارحي قد فاقت من سباتها ، ومستشعراتي الحسية قد غفت من خمولها، والأرض تجدد نفسها ، والميت يحيى من جديد ، ويتغير كل شيء ...

وكنت على ذلك الحال حتى أحسست بعجلات الكرسي المتحرك توقفت عن الدوران ، فتحت عيناي فإذا بطابور من الناس أمامي ، لا يفصل بيننا إلا الباب ، الكل أتى ينتظر موعد الزيارة ليزور من يرقد في هذا المستشفى من أحبابه ، وقبل قليل كنت مثلهم ، ننام هناك كمن ينام على أرصفة الدروب ، وقبل أن يفتح لنا حارس الأمن الباب ، طلب من

الناس الواقفين على الباب أن يتنحوا عن الطريق حتى يحين موعد الزيارة ، فسمعت بعدها صراخات وهمهمات من المعارضين والذين طالت مدة انتظارهم .

ونحن نشق طريقنا بين ذاك الجمع الغفير ، صادفت عيوني وجوها جد مألوفة ، ومَن غير أخواتي سيأتي ليزورني ويؤازرني في محنتي ، فرأيت ابن عمي وقد ركن سيارته البيضاء ، وبجانبها تقف أختي الكبيرة، البكر المتين والعقل الرزين ، وبجانبها الثانية، ملح المجالس ونعم المجالس ، ثم الثالثة ، فتاة في الثلاثين ، ذات عقل ودين ، ثم أولادهن بنات وبنين ...

تحت شمس الظهيرة تلك ، إلتف الجميع حولي ، في مشهد تكرر حولي أكثر من عدد الركعات في اليوم ، وكأني في أستوديو تصوير، أبحث عن المشهد المنشود المناسب للعرض ...

أرادوا أن يقوموا بنقلي إلى السيارة ، ولكني أبيت ، فلا أطيق كثرة التنقلات ولا كثرة التحركات ، فارتأيت أن أبقى في ذلك الكرسي ، بحكم أن لنا منزلا لا يبعد عن المستشفى أكثر من مسير عشر دقائق ، وهي فرصة لأصحبكم في جولة معي، ولكن تمهلوا حتى تمر سيارة ، فلا أريد أن أعود مرة أخرى إلى أسرة المستشفى.

والآن ابقوا خلفي حتى أكون لكم دليلا ، للطريق مرشدا ، فهناك صيدلية بهلالها وصليبها ، وهناك دكان يتربع فوق كرسيه شيخ يطرق أبواب الثمانين بلحيته الكثيفة الكثة ، يلتصق به محل يبيع كل ما يخص الصبيان الرضع من حفاظات ، وقنينات حليب ، ومصاصات رضاع ، ومساحيق ملطفة ، وزيوت مرطبة... بجانب هذا المحل متجر ممتاز ، ثم مخبزة يسيرها رجل قليل الكلام ، وفي الغالب لا يرد السلام ، ثم محل عقاقير ، يبيع مواد البناء والتسبيك ... بجانبه مدخل يؤدي إلى ساحة قاحلة ، صالحة للتعمير ، ثم محل لبيع الدجاج ومشتقاته ، صاحبه رجل محبوب ، لطيف ودود ، بسترته التي تقيه الماء والدماء ، وبقفازاته البلاستيكية ، وعلى رأسه طاقية يظهر من تحتها شعره الناعم الشديد السواد ، في تقابله مقهى ، لم تعتب يوما أقدامي بابه ، ولا مرت في حنجرتي شربة ماءه ، بجانبها متجر ، وقد ركنت أمامه ثلاجة تحوي من المثلجات ما يزيل عني حر هذه الظهيرة ، وقد علق على الباب لافتة أرجح أنها تشير إلى أن أبواب المتجر مغلقة إلى أن تؤدى الصلاة ... وهنا سننعطف يمينا إلى ذاك الشارع الهادئ النقي ، والذي يحوي رب أسرة مكافح ، يليه صف من المنازل ، أناسها طوب وحجر ، جار ثم جار، وخير جيرة وجوار، وفيه مسجد قبلة للمتقين ، ومؤذن تتنغم الجدران بصوته مناديا الله أكبر الله أكبر .. وإمام جليل ، حامل لكتاب الله ، متمكنا حافظا ،

وفيهم مربي أجيال أنيق ، وموظف عن عمله مواظب... نكتفي بهذا القدر ، حتى لا نقع في الأسوأ ، وفي الشخصيات السلبية ، ففي هذا الحي يدب فيه المارة دبيب النمل ...

رُكِنَ الكرسي ، وتوقفت العجلات ، وكان والدي قد سبقنا إلى البيت... فتح الباب ، قام خالي بحملي ليصعد بي السلم ، ولم يقف حتى بلغ بهو المنزل ، فأراد أن يدخلني إلى غرفة المعيشة ، فرفضت ذلك وطلبت منه أن يدخلني إلى غرفة شبه مظلمة ، لأنام وأنال قسطا من الراحة ، فلبى طلبا، وأجاب سمعا وطاعة ، فوضعني على الأريكة بحرص حريص، وبرفق شديد ، وجعل علي بطانية ، فطلبت منه أن يغلق الباب خلفه ، رغم أني أكثرت عليه الطلب ، إلا أنه كان معي غضا بضا[3] ، فودعني ، وبعدها عمد إلى الكرسي المتحرك ليعيده إلى المستشفى .

وأنا متوكئ ، قمت بإخراج يدي تحت البطانية بحركة بطيئة ، أتحسس فراغ الغرفة ، وأستشعر دفئها ، وصوت ضحكات أسرتي تتسلل إلى آذاني ، فقمت أتساءل :

_"لماذا لم أكن معهم ؟"

---

[3] غضا بضا: تقال عن كل ما هو طري ولين.

_"لماذا أنا بالضبط ؟"
_"لماذا أصابتني أنا ؟"

وفي خضم تلك التساؤلات ، تذكرت حديث امرأة في المستشفى ، وهي تتحدث مع طبيب وتقول :

_" الحمد لله ، مرضنا دليل على أن الله لم ينسانا ".

ثم تذكرت حديثا مشهورا كنت قد تعلمته في المسجد العام الماضي يقول : " إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه " ، فسار الحمد على لساني مطلوقا ، وسارت في جسدي رعشة خشوعا ..

_" اللهم إني أحمدك حتى يبلغ الحمد منتهاه..
اللهم إني أحمدك حتى يبلغ الحمد منتهاه"..

فتح باب الغرفة ، فإذا بأبناء أخواتي ومعهم أخي يدخلون ، وفي أياديهم كؤوس من المشروبات الغازية ، من بينهم ابن أختي مشاكس ، وله من الأفعال الطريفة ما يحلوا ذكرها في مجالس العائلة ، تلطف بها أجواء المجالس ، فتقرب مني حتى أتى موضع رأسي ، وأخذ يقرب كأسه إلى

أنفي لأشم رائحة المشروب ، وكان يقوم بهذا عمدا ، لأنه علم بأن الطبيب قد منع علي المأكولات والمشروبات الحامضة ، وبقي على فعله ذاك ، حتى أتت والدته فنهرته ، بل وطردتهم من الغرفة حتى أرتاح ، فقامت بترتيب مكاني وبطانيتي ، ومسحت على رأسي ، ثم خرجت بعد أن تمنت لي الشفاء العاجل .

عاد الصمت يسود الغرفة ، وأردت أن أغير وضعي لأنام على جانبي الأيمن ، ولكن شعرت بألم لم يسمح لي بذلك ، فتحسست موضعه فوجدته وعليه ضمادة ، حينها تأكدت أنها أجريت لي العملية ، فصرت حريصا على هدوء حركتي ؛ كي لا يقع لي ما وقع لتلك الفتاة التي رأيتموها معي في ذلك اليوم العصيب في المستشفى ، ثم تذكرت تلك الأوراق والأقلام التي رأيتها على خزانتها ، فعادت إلي الرغبة في الحصول على دفتر وقلم ، قبل أن أفكر في الكيفية التي سأكتب بها ، وكيف سأتصرف وأنا دائم الاستلقاء ، ناديت واحدة من أخواتي فجاءت إلي مهرولة ، فوقفت لحظة ثم سألتني:

_" ما بك ؟ هل أنت بخير؟"

فأجبتها أن بخير ، ولكن أريد دفترا وقلما.. فعلت وجهها

الحيرة من مطلبي ، ثم عادت تسألني:

_"هل أنت متأكد أنك بخير ؟"

فأكدت لها أني بخير ، ثم قالت:

_"عندما نعود إلى بلدتنا سأعطيك من الأقلام حزمة ، ومن الدفاتر رزمة.."
فقلت: "حسنا ، ريثما تعود إلى جسدي بعض من قوته ، أما الآن فلا أقدر على أن أمسك ولو قلما بين أصابعي"

مر باقي اليوم مر السحاب ، فلم أدري متى جرني زحف النوم ، ومتى زحف بي النعاس كالسيل ، ولم أتذكر متى حل الليل وساد ، ومتى أغار الظلام وغاز، مر بسرعة لم يمر بها علي يوما وأنا مكبل بأصفاد المرض ، ومقيد بأغلال الألم وأنا في سريري في المستشفى.

استيقظت غير مهتم بباقي يومي ، فأنا في بر الأمان ، قطعت الوادي ونشفت رجلاي. نظرت إلى يداي أقلبهما بحثا عن ساعتي التي كانت في يمناي ، لم أتذكر أين وضعتها ، وضعت يدي على رأسي أفركها وأتساءل: هل أضعتها؟؟ أم أني ألقيت بها في مكان ونسيته ؟؟ منذ أن خرجت من المستشفى لم أراها ، يا لضعف ذاكرتي !!! ولكني معذور ،

فمخي مرهق ومخيخي ، ولم أعد آبه بشيء غير استشعار دفء بطانيتي ، ونعومة وسادتي ، أقوم بهذا كما يقوم السجين باستشعار دفئ أشعة الشمس بعد أن يعتب باب السجن...

فتح باب الغرفة ببطئ شديد ، فإذا بأعين بريئة عليها أثر النعاس تطل من سطر الباب بفضول ماكر ، إنه أخي الصغير ، الذي لا يسبقه الشمس إشراقا ، ولا يجده القمر مستيقظا ، فقد كان من طبيعته ينام باكرا ويستيقظ باكرا ... لم يلاحظ بعد استيقاظي ، فأراه وهو يلتفت يمنة ويسرة التفاتة إبليسية ، بعدها تشجع وخطى إلى داخل الغرفة خطوات ماكر متحذلق ، ثم اتجه إلى سلة موضوعة على طاولة بجانب أريكتي ، فسمعت خشخشة أصدرتها يداه الخفيفتان الغير بريئتان ، وهي تنبش في كيس الياغورت والحلويات وما إلى ذلك ، ثم خرج بسرعة لم يدخل بها ، فناديته مباشرة بعد خروجه ، فأتاني وملامح وجهه تغيرت، وقد جعل يداه وراء ظهره ، كدت أقول له: "على هامان يا فرعون" ، ولكن لم أظهر له شيئا ، مما جعل تلك الملامح قد انقلبت ، لتعلوا وجهه نشوة النصر ، فسألته:

_"هل استيقظت أمي؟"

فأجاب:

_" إنها في غرفة المعيشة تتناول وجبة الفطور"

فطلبت منه أن يناديها ، فاستجاب لأمري كغير عادته ، ولكني أعرف السبب ، غادر الغرفة وهو يرجع بخطواته للوراء ، ويداه ما زالتا خلف ظهره حتى خرج من الباب ، فما هي إلا لحظات حتى أقبلت علي والدتي ، وبدأت في إلقاء أسئلتها النابعة من خلفيتها الحنون ، فأجبتها أن الحال أحسن من قبله لأطمئنها ، فلا أريد أن أزيد لها هما أثقل به كاهلها ، وأشغل به بالها ، ولكن حقا أني شعرت بتحسن ملموس ، وإن كان هذا الحال يخص جانب نفسيتي ، أما العملية فما زال جرحها جديدا ، وما زال ألمها عنيدا ، والخوف شرا وعيدا... بعد حوار من أسئلة عطوفة ، وأجوبة مطمئنة ، سألت والدتي:

_" متى نذهب إلى منزلنا ؟"

فلم تفهم قولي ظنا منها أني أهلوس ولا أدري أين أنا، فأجابتني مستدركة:

_"باسم الله عليك ، نحن في منزلنا.."

ففرزت لها كلامي ، وأعدت عليها سؤالي، فقلت:

_"أقصد متى نعود إلى بلدتنا"

فأجابتني وكانت إجابتها مضطربة ، فألححت عليها طلبي ، وثبتتها بدموع بكائي ، فقالت بعد أن كان بعض رأيها قابلا :

_" دعني أشير أباك فنرى ما هو قائل ، والآن ألا تقوم فتتناول وجبة فطورك ؟ "

فأجبتها:

_" ليس الآن فالوقت ما زال باكرا"

فانسحبت من الغرفة لتخلف وراءها صمتا وأملا، وقمت أسير في الغرفة وأجول فيها بأنظاري ، وبيداي اللتان ما

زالتا معلقتان في فراغها أمررها في الهواء لألامس جزيئاته، لم أصدق بعد أني تحررت من القيود التي كبلت يداي لأربع أيام بالتمام والكمال ، وانتظرت طويلا حتى صار مبلغ آمالي أن تقبِل والدتي وفي يدها تصريح الموافقة من والدي ، ولكني رأيت أن هذا التأخير لا يبشر بخير ، فجهزت سيلا من دموعي ، وجربت نبرة صوتي إن كانت صالحة للصراخ والصياح ، واخترت كلماتي اللئيمة بعناية ، حتى صرت حزاما ناسفا ، وقنبلة موقوتة مستعدة ومتأهبة للانفجار بعد سماع كلمة "غير موافق" ، وبقيت مستلقيا ، متذمرا وغاضبا ، حتى فتح باب الغرفة ، نظرت فإذا بأخي يدخل إلي بملامح حزينة ، ووجه مربد ، فسألته:

_" أين أمي ؟"

فأجابني بنبرة حادة:

_"إنها تحزم أغراضنا لنرجع إلى بلدتنا"

فقلت:

_"إذا وافق أبي"

فأجاب بصوت تخنقه تنبؤات وإرهاصات بكاء :

_"يا ليته لم يفعل"

لا أدري إن كنتم تعلمون سبب انفعال أخي، فإن كنتم تذكرون فقد أخبرتكم ذات يوم عندما جاء لزيارتي في المستشفى حيث كنت أواجه الويلات ، وقمة النكبات، كان أخي عندها يقفز نشطا ، وأخبرتكم أنه يقوم بذلك لأنه علم أنه ما دمت مريضا فلن يذهب إلى المسجد لحضور حلقات التحفيظ ، واليوم وبعد أن نعود إلى المنزل ، فأكيد أن أبي لن يسمح له بالتغيب ، بل وسيذهب به إلى المسجد طوعا منه أو كرها. وليكون في علمكم أن أبي رجل هين لين ، ولكن عندما يتعلق الأمر بالمسجد ، فإنه يتحول إلى رجل شديد أديد...

خرج أخي من الغرفة ، مجيبا ومستجيبا لنداءات أمي ، وبعد قليل دخلت علي أختي ، وحيتني تحية الصباح ، وأخذت ما في الغرفة من ملابسي ، وأمرتني بنبرة تحفيزية أن أتجهز للرجوع إلى المنزل ، فقمت أذكرها قائلا:

_"هل ما زلت ستعطيني ما طلبته منك ، أم أنك بدلت كلامك كعادتك ؟؟"

فضحكت وقالت:

_"كن مطمئنا ، لم أغير كلامي"

ثم انسحبت من الغرفة ، لم أصدقها حتى وأنها قالت ذلك، ولكي تعلمون السبب ، سأحكي لكم قصة وقعت لي مع أختي هذه ، والكلام يفتح الباب إلى كلام ، وكل كلام يقود إلى كلام، فذات يوم مضى عليه من الزمن قليل ، كنت وما زلت صبيا هادئا يلعب في التراب ، مع أصحابه الأتراب ، وفي ذلك اليوم، وخلف رجوعي من المسجد بعد انتهاء حصة الزوال ، والتي تبدأ من الثانية ، وتنتهي بأداء صلاة العصر ، ارتأيت أن أبقى في المنزل حتى يحين وقت حصة ما قبل المغرب ، والتي تبدأ من السادسة مساء ، وتنتهي بأداء صلاة العشاء ، فبقيت في المنزل ، جالسا خلف صندوق ألعابي ، أفكر في أي لعبة سأخرجها ، كنت محتارا ، هل أشارك في مضمار السباق بسيارتي الرمادية السريعة؟ أم أشن هجوما على عدو

وهمي بسلاحي البلاستيكي الفتاك؟ أم أدير عرسا أزوج فيه رجلي الآلي بالدمية الأميرة ، والجوق فيه سلاحف النينجا؟

وما زلت في حيرتي تلك ، حتى أقبلت علي هذه الأخت الكريمة الشقية ، لتنقض على صندوق ألعابي ، فتهرب به ، ولأني شخص لا يسمح في حقه ، ركضت خلفها برجلاي الحافيتين ، فلم أدركها إلا وقد بلغت باب البهو، فمسكت بها من ثوبها بكلتا يداي ، أصرخ طالبا استرجاع ما نهبت مني ، وهي تضحك رافعة الصندوق إلى ارتفاع لا يسمح طولي أن أصل إليه ، ولم أدري متى قامت بحركة دورانية سريعة ، انتهت بارتطام جبهتي -البريئة من كل ذنب- بإطار الباب ، فبمجرد أن أطلقت صيحة حتى وضعت كفها على فاهي ، لتحبس ما تبقى من صرختي ، وحملتني إلى غرفتها والدماء تصبغ وجهي وتلونه ، فأخذت تهدئني وتمسح دموعي، ولم تزيل يدها على فمي حتى تأكدت من توقف صرختي ، وبهذا تكون قد تشرفت بوضع بصمتها وسط جبهتي ، لتضيف لها زينة ثلاثية الأبعاد، ولكي أستر فعلتها ، وأكتم أمرها ، قامت بإغراء براءتي بعلبة الألوان ، التي لم يطل بقاءها معي ، حيث انتظرت إلى أن رست الأوضاع وهدأت ، واستقرت الأمور وسكنت ، حتى قامت بأخذ ما أعطت ، وسلب ما منحت، ومنذ ذلك الحين لم أعد أثق بوعودها ...

والآن صرت أسمع الحركات المعلنة عن الرحيل ، أبواب النوافذ تغلق ، وأبواب الغرف تقفل ، ودارة الكهرباء تُوقف ، ودارة الماء تُحبس ، وأبي في المرآب يقوم بتسخين محرك سيارته البيضاء الطويلة ، تقوم أختي بنقل الأمتعة إلى صندوق السيارة ، في حين أقبلت علي والدتي بلحافها الطويل لتنتشلني فوق إسادتي ، وتحملني بين أيديها بحرص شديد ، ليضرب علي شعاع شمس تسلل من نافذة التهوية ونحن نخطو بهو المنزل ، لتهبط بي السلالم ، وأخي خلفنا ، أشاهده وهو يهبط الدرجات قفزا قفزا ، وجلست والدتي في المقعد الخلفي لمقعد السائق ، وأنا متكوم في حضنها...

_"سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون..."

هذا قول أبي وهو يقوم بتحريك السيارة ، في الطريق قام والدي بتشغيل مذياع السيارة ، وأخذ يقلب في محطاته حتى وقع على محطة فيها واعظا ، فساد الصمت ، وألقينا السمع ، وكل آذاننا مصغية إلى حديثه ، وهو يلقي من العِبَر ما يفيض من العَبَر ما تحمله العُبْرُ ، بكلمات تقي من الحر ولفحه ، وتقي من البرد ونفحه ، وبقيت أنا في حضن أمي ساكنا ، حتى ظهرت لي صومعتي مسجد بوزرز ، فأحسست بالحياة عادت للحياة ، كما عادت للقلب خفقاته ، وللعرق

نبضاته ، وعاد للعين اختلاجها ، ولليد ارتعاشها ، فدخلناها ءامنين مطمئنين ، وكيف لا وقد دخلنا أرض الزيتون والتين، أرض ساحلية قد كان فيها السلام دائما مؤبدا، أرض طيبة تاريخها وقور ، في مدخلها مؤسسة تساق إليها الرحال ، لتحصيل علم واكتساب معرفة ، وكعادة من والدي ، عند بلوغ تلك المؤسسة ، يلوح بأنظاره إلى تلك القطعة الأرضية المقابلة لأبوابها ، والتي زرع ذات يوم تربتها بمحراثه ، وضرب في أرضها بفأسه ، تلك الجنة التي أكل من ثمارها طير وبشر ، مما تنبته الأرض من نبات وشجر ...

أطلقنا عجلاتنا للريح ، ماضين في طريقنا ونحن نتقدم إلى مدخل القرية التي جذورها عريقة ، وبتاريخها مجيدة ، برجالها قائمة ، وبنسائها شامخة ، سكانها قوم غيور ، وللمصلحة سباقون ، وعلى أمثالهم يقولون: "إذا نزلت بأرضهم فأرضهم ، وإذا نزلت بدارهم فدارهم ، وإذا نزلت بحيهم فحيهم"...

فمضينا نخيط المنعرجات ، حتى بلغنا منزلنا ، آيبون تائبون لربنا حامدون ، فدخلنا وعلى ألسنتنا تحية من عند الله مباركة طيبة ، واستقبلتنا خالتي التي بقيت في منزلنا فترة غيابنا ، وقد رتبت لي مكاني ، ولكن أمي طلبت منها أن تجهز لي مكانا في غرفة الضيوف ، لم أكن أدري لماذا طلبت منها ذلك، حتى رأيت جيراننا وهم يقبلون علي أفواجا ، وهذا

ما يميز البلدة عن المدينة ، ويميز بلدتي عن كثير من البلدان، فسكانها "كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"...

وبعد فترة ، صار جسدي قابعا في مكانه ، وآذاني على الباب ترتقب طرق طارق ، لأني استنتجت أنه كلما كثر الزائرون ، إلا وتضاعف مبلغ نقودي ، وملأت به جيوبي ، حتى وجدت أن لمرضي جانبا آخر، وهو أنه مشروع مدر للدخل ، وسبحان الله ، لاحظت أن تلك النقود وإن كانت كثيرة فإنها غير مباركة ، فحاولت أن أجد المشكل فأحله ، وأجد الثقب فأسده ، ولكن لا جدوى ، فبقيت على ذلك الحال ، حتى اعتدت فيه الأمر.

من بين الأمور المستجدة ، أني وجدت أختي بجانبي وحنانها يزداد يوما بعد يوم ، نفسها تلك الأخت الشقية الكريمة ، ففي كل ليلة قبيل نومي ، تأتي إلي بوفرة من حنانها، وبكمية من اهتمامها ، فتحملني رغم ضعفها ، إلى غرفتي ومضجعي ، فتفرش لي من الوهم الوثير ، وتلبس لي بالمكر ثوب الحرير، وفي كل ليلة ، بعد قيامها بكل ذلك بلحظات ، دائما ما كنت أسمع أصوات الجر ، في الأيام الأولى لم أكن أهتم لها ، وبعدها صرت أنزعج منها ، ثم في الأخير وجدت أن ذلك الصوت ، ما هو إلا فقرة مبرمجة في

البرنامج اليومي لأختي ، والذي تختم به يومها ، حيث تقوم بإزاحتي من المكان ، ليخلوا لها المجال ، ثم تقوم بجر الأريكة التي أقضي فيها يومي ، فتجمع حصيلة ما وقع من جيوبي ، فكل ما جمعته في اليوم ، تقسمه معي أختي مكرا منها وخديعة ، فكنت أجمع النقود ريالا ، وتأخذها هي دراهما ...

عبثا حاولت استدراج النعاس إلى عيني ، لأنسى هول ما وقع ويقع لي من النصب ، بعد أن أزحت الستار عن كواليس حنان أختي ، فأجد طيبتها واهتمامها ، ما هي إلا خلفية لطبيعتها ، طبيعة الثُّعَالَة ، بأنيابها التي يتقطر منها الاحتيال تقطيرا...

حل الظلام ، ونام الجميع ، وساد الصمت ، أين الجميع؟

حتى أخي الذي يشاركني الغرفة ، لم يعد من صوت ضجته ، ولا فعل جلبته ، إلا جثة ساكنة ، مع أنفاس هادئة... أطلقت تنهيدة أطلقت معها سراح همومي لترحل إلى حيث ألقت رحالها أم قشعم ، واستظهرت دعائي المعتاد:

_"اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها ، وإن تركتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"

غالبا ما يكون هذا الدعاء تعويذة سحرية أنتقل بها إلى سواحل النوم وأعماق السبات... فتراءت لي في الأحلام أضغاثها ، حيث رأيتني وأنا أدخل إلى قاعة ، عالية البنيان ، ومشيدة الأركان ، لها من الزينة ما يأسر العيون ويسحرها ، ويلفت الانتباهات ويجذبها ، فجدرانها مزركشة بفسيفساء ، وفراشها من الوثير ، مصابيحها ثريا ، وعود خوانها من العنبر ، حولها طيور لا تنتهي عن الصداح ، ونهر دائم الجريان ، وفي أقصى القاعة ، وفوق منصة مرتفعة عن الأرض ، عرش يبعث الرعدة في الأوصال ، والرعشة في الأطراف ، وكانت أرضية القاعة مفروشة بالسجاد الحريري، والأرائك المصنوعة من المخمل المذهب ، فأخذت أمشي على السجاد حتى صرت قريبا من العرش ، فتراء لي ثعبانين أسودين يدوران حول المكان ، لم أكن أتخيل أن هناك من يتخذ من الثعبان حارسا حاميا ، وفجأة وجدت نفسي وسط جموع وحشد ، نجري وكأننا في حلبة السباق ، والمجهول يجري خلفنا يطاردنا ، ونحن هاربين منه اتقاء شره ، وكنت أجري حتى صارت رجلاي تضرب قفاي ، إلى أن وصلت إلى حافة معلقة بين السحب ، ولم يكن أمامي إلا خيارين ، فإما أن أقفز وإما أن أقفز ، وبلا تخمين في النتائج، ولا رجاء في النجاة ولا تمني ، اخترت الثاني ، بدون تأخير ولا تأني ، وأنا أهوي من ذلك العلو الشاهق ، كنت أنتظر أن تتخطفني

الطير، أو تهوي بي الريح في مكان سحيق... انتفضت من نومتي مخلوعا ، وخرجت من كابوسي مهلوعا ، ونجوت منه كفافا ، لا وزرا ولا أجرا ، قضيت معظم ليلي مضطربا ، وحيدا في الظلام مع لا شيء ، سوى الأفكار القاتمة ، يمكن أن يطول الليل كالطريق ، ولكن للحظة أتاني فيه النوم من حيث لا أدري ، فمرت الليلة بسلام ...

غافلت عن فقرة من فقرات برنامجي الأسبوعي ، والتي قد فرضها علي الطبيب أمرًا ، فكان علي أن أنفذها جبرًا ، حيث فرض علي أن أزور طبيبا مرة كل يومين ، لتطهير جرح العملية ، وتبديل ضمادته ، وكان هذا الأمر ممتعا ومتعبا ، حيث أنه في حالتي الهشة ، والممددة بين ثنايا الفراش ، والتي لا تأذن لي بالتفتح على العالم الخارجي، ولا تسمح لي حتى بالنظر إليه ولو من بعيد ، كانت تلك الزيارات بمثابة همزة وصلي مع ما وراء جدران بيتنا ، ولكن رغم ذلك كنت أعود من تلك الزيارات وأنا مرهق ومتعب ، ليس لمشقتها وإنما لكثرة تكرارها ، وما يضيف لها صبغة تشويقية ، هي تلك الحركات البهلوانية التي يقوم بها الطبيب، ودغدغات من أصابعه السمراء ، وهو يقوم بتطهير جرحي ، وكانت الزيارة الأولى لذاك الطبيب ، غير الزيارات التي تلتها، فقد كانت عيوني لا تألف رؤياه ، ولا تتوق النظر إلى محياه ، كان قصير القامة ، غليظا

أسمرا، مدكوكا كخبيئة ماء ، مقرون الحواجب بشكل يبرز حدة عينين عسليتين ، ضخم الشفاه ، تفتر من فمه عند الانشراح بسمة تسحر وتخيف ، وكانت اللحظة التي أرعدت فريصتي ، وأرعبت نفسيتي ، هي تلك اللحظة التي قام فيها بانتحال قفازاته ، وخوض أصابعه تنبش في أطباق المعدات الطبية ، كالتي رأيتها ذلك اليوم في قاعة العمليات ، لا أدري لماذا هذا الطبق دائما يجري خلفي، كأنه يقتفي أثري! لا ينفك يذكرني عن تلك الأيام العصيبة ، ولكن بعد الزيارة الثانية والتي تليها ، صرت أعتاد الأمر شيئا فشيئا ...

في طريق عودتنا ، وأنا مستلق في المقاعد الخلفية ، أنظر إلى سقف السيارة ، وأتأمل حالتي وما آلت إليه ، في أيام معدودة ، شعرت فيها بكل أصناف المشاعر ، وتذوقت فيها أطباق المعاناة ، وأنا الذي كنت ما كنت ، طفل عابث يملؤه الغرور ، وتمضي الحياة ، وتخطف من أيامنا أيام ، حتى في الخيال لم يعد لنا فيه إلا الخيال ...

ها نحن عائدون إلى عرشي الذي أذوب فيه على مهل ، كما يذوب الزبد الجامد على النار الخافتة ، وكان اليأس عدوي اللدود ، والظروف جعلت منه صنديدا كاسرا ، ولكن من لم أقتله بالسيف ، أقتله بالقلم ، لذلك عقدت عزمي ، وشددت حزمي ، واليوم أجعل من المشاهد حكاية ، ومن الأحداث رواية ، فأصرخ متحمسا مناديا أختي ، فجاءتني

مهرولة ، وقبل أن تتحدث قلت لها:

_"هذا يوم الوفاء بالعهد ، فأتيني من حزمة أقلامك قلما ، ومن رزمة دفاترك دفترا..."

فوضعت يدها على صدرها ، وتحملق في الفراغ بعينيها ، وأوجفت لحظة ، ثم أردفت قائلة:

_"أعلى هذا أقمت كل هذه القيامة ؟؟
انتظرني سأعود بعد قليل..."

هناك مصطلحات تسير في بيتنا عكس مفهومها وضعا ومواضعة ، وللتوضيح أضرب لكم مثلا: كلمة "إن شاء الله" هي الكلمة التي يتهرب بها المُطالب من طلبيات طالب ، ويجعل المَطالب معلقة بدون إجابة ، كذلك الأمر مع عبارة "سأعود بعد قليل" ، حيث تقودك الجملة إلى التحرق والتعرق، وتدرع المكان جيئة وذهابا ...

كما قلت لكم ، ها هي أختي تعود بعد أن غربت شمسها ، وعسعس ليلها ، ولأني أعف الناس لسانا ، وأحسنهم خلقا ، لم أترك كلمة لم أسمعها لها ، مما جعلها تكاد أن تعود عن

أمرها ، وتأخذ قلمها ودفترها ، ولكن في الأخير تغلبت عليها عاطفتها ، ونفذت لي رغبتي..

عدلت من وضعيتي ، ووضعت وسادة على ركبتاي ، وعقدت نيتي على الكتابة ، وعلى بركة الله أخذت قلمي ، أمرره بين أصابعي ، أنتظر منبع كلماتي ، وعين حروفي أن تأتيني بأول رشفة تعبيرية ، أبلل بها أوراقي. أظن أن أرضي قد جفت ، وصار ترابها كالرماد ، ولكن ما بعد الضيق إلا الفرج ، كما لا يأتي بعد الليل إلا النهار ، قطرات التعبير بدأت في الهطول ، غيثا ، فوابلا ، ثم غدقا...

"إنه حال أمي.."

هذا ما فتحت به كتابتي ، ثم أتبعتها حاكيا:

"دائما ما تأتي كل صباح لتوقظني قبل الوقت المتفق عليه ، غير أن هذا اليوم..."

وبهذا نكون قد وصلت في الحكي ، ووصلتم في الانصات إلى آخر ساعة من نهار حكايتنا ، والآن دعونا ننام نوما عميقا في انتظار صحوة توقظ جذورنا فتنميها ، وتعيد لها الحياة فتحييها...

وحتى الآن لا يسعني إلا أن ألوح للحياة من بعيد ، محاولا استدراجها لترمم ما تبقى من جسدي الهزيل ، الذي طال مكوثه تحت وسادة ، يكتب عليها ما توفقت المعاناة في صدوره منه ، ولصبري على ذلك مني سلام...

تمت بمعونة الله في يومه

2022/11/09

على الساعة 04:57 فجرا..

شرف لي أنك وصلت عزيزي(تي) القارئ(ة) إلى ءاخر سطر من روايتي هاته ، وأحييك على اطلاعك على صفحاتها المتواضعة ، والتي جاءت بالعدد القليل ، ليس فقرا في مخزون جعبتنا الأدبية ، فعندنا من الابداع ما يجعلنا ننتج أعمالا غزيرة ، ولكن استلطافا للنفوس ، ولكسب قبولا عند حضراتكم القراء ، جاءت الأسطر والصفحات ، على ما رأيتموه ، باعتبار هذا أول الأعمال لي ، ونلتقي في الأعمال المقبلة بإذن الله...

محمد أبليل

للاستفسار أو للمزيد من المعلومات ، أو من لديه سؤال وتساؤل حول الرواية ، فإني أضع بين أياديكم رقم واتساب خاص بالرواية..

+212689207406